SAMI

SAFAR AL-SALAM

سفر السلام

في

بلاد الشام

لسعادة الفاضل عبد الرحمن بك سامي
مدير المنيا

طبع في مطبعة المقتطف بمصر
سنة ١٨٩٢

نقلاً عن جريدة اللطائف

القول الحق في بيروت ودمشق
او
سفر السلام في بلاد الشام

مقدمة

الحمد لله قبل كل شيء . وبعدُ فأقول انني في اثناء الصيف الماضي بعد منحي الرخصة من الحكومة السنية قصدتُ الاقطار السورية حسب مشورة الاطباء لتغيير الهواء وترويح النفس اثر ما أَلمَّ بي من انحراف الصحة فجلتُ في بيروت ودمشق ولبنان اياماً عديدة سررتُ فيها كثيراً من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وجودة المكان ولطف السكان . وقد عنيتُ بكتابة هذه الاسطر الوجيزة وهي ملخص رحلتي في تلك الديار لعلّها تكون مفيدة لاخواننا المصريين الذين يتوجهون اليها لتغيير الهواء وزيارة الاماكن الشهيرة وبالله التوفيق

بيروت

بارحنا دار السعادة العلية يوم الخميس في ١٩ يونيوسنة ١٨٩٠ الساعة الخامسة بعد الظهر فركبنا الباخرة النمسوية من قومبانية (لويد) وبعد سفر ثمانية ايام مررنا فيها على جملة جهات وصلنا الى بيروت صباح الثامن والعشرين من يونيوسنة ١٨٩٠ وما لبثت الباخرة ان رست بنا حتى تصاعد اليها البحرية (الملاحون) فوجدناهم الطف طبعاً من غيرهم وذوو حمية وشهامة يستغرب وجودها بين ارباب هذه المهنة ومما زادني عجباً بهم هو عدم احتمالهم الاهانة ونفورهم منها وانقيادهم باللطف فانهم يتحمسون باقل كلمة لطف او تنشيط تقال لهم وبخلاف ذلك لو اهانهم احد ما فانهُ يعرّض نفسهُ لما يسوءهُ وكانوا يجذفون بالركاب وعلامات القوّة تسرني فيهم

وبما انهُ لم يسبق لي معرفة في هذه الديار كنت مستغرباً وشعرتُ في نفسي بالوحشة في الغربة ولكن حالما رست بنا الباخرة قابلنا كلٌّ من حضرات الخواجه يوسف الصوراني من تجار بيروت المعتبرين واحمد افندي محيي الدين نجل حضرة عزتلو افندم محيي الدين بك حمادة رئيس بلدية بيروت واعتذر عن حضرة والدهِ بانهُ لم يستطع مقابلتنا في البحر لما يصيبهُ من الدوار وانهُ ينتظرنا على الرصيف وجاء حضرة درويش افندي الغزاوي من معتبري تجار بيروت ايضاً وكان سابقاً وكيلاً للبوستة الخديوية وامين افندي البربير واحمد

افندي زعطوط وكلاهما من اعيان بيروت وكلٌ منهم قد احضر زورقاً خصوصياً لنزولنا فيهِ فشكرنا حضراتهم على الطافهم واكرامهم وزال ما اعتراني من وحشة الغربة بلقياهم . ثم نزلنا جميعاً بزورق نجل عزتلو محيي الدين بك حمادة وقد استغربت ما شاهدتهُ في حضراتهم من اللطف والاكرام على حين لم تسبق لي معرفة شخصية بهم ولكني علمت انهُ فضلاً عن المزايا الحميدة التي اختصوا بها تحرَّر لهم تلغرافياً من الهمام الفاضل حضرة محمد اسعد بك طلبمات من تجار معتبري الاسكندرية لما علم بقيامنا من دار الخلافة الى سورية وذلك بناء على المخابرات التي كانت بيننا مدة اقامتنا هناك وحالما وصلنا الى الرصيف وجدنا بانتظارنا جمهوراً غفيراً من الاعيان يتقدمهم حضرة الفاضل عزتلو محيي الدين بك حمادة المصري الاصل فاحتفلوا بنا اي احتفال ووجدنا الرصيف غاصاً بالناس والامتعة فسلمنا الباسبورتات الى البوليس المكلف بذلك وسلمنا على حضرات الملتقين وشكرنا محبتهم ولطفهم. ثم ركبنا العربة الى منزل حضرة البك المشار اليهِ ولا يسعني الاَّ القول ان ميناء بيروت غير مرتبة (ولعلها تصلح عند اتمام المرفإِ الجديد) ولاحظت انهُ لا بد للمسافر الغريب الخالي من المعارف ان يتعب قليلاً اذا لم يتيسر لهُ من يساعدهُ . وبلغني ان بعض صغار المستخدمين الذين يأخذون أُجراً قليلة يضطرون احياناً الى ثقب اكفهم لقبول بعض دريهمات من المسافرين يحسبون ذلك نوعاً من الحلوان وهذا غير مثبت عندي وعلمت ان حالتهم احسن من قبل وخصوصاً من يوم تبوَّأَ عرش الخلافة جلالة سلطاننا الاعظم

وعلمت ان اغلب الكتب والجرائد التي من خارج سورية يمنع دخولها

قبل تصديق مجلس المعارف في بيروت عليها وذلك اذا لم تكن مطبوعة برخصة سنية

وبعد ان استرحنا قليلاً ذهبنا مع حضرة محيي الدين بك حماده وجلنا في المدينة فراقني منظرها لانها مبنية على حف تلٍّ يُرَى البحر من اكثر بيوتها الجميلة الهندسة واكثرها مسقوفٌ بالآجر الاحمر المعروف بالقرميد بشكل جمالون . وهي كما وصفها حضرة صاحب اللطائف في المجلد السابع من المقتطف حيث قال بيروت زهرة سورية ومركز علومها وفرضة الشام ومصب حاصلاتها وهي في طول شرقي ٢٨ʹ ٣٥° وعرض شمالي ٥٠° ٣٣ʹ وكانت قديمًا مدينة الفقه واشتهرت بمدرستها وهي الآن مدينة العلم والطب ويُعرف علو منزلتها من كثرة مدارسها وقيمة اعمالها الخيرية من مستشفياتها وهيئتها الاجتماعية من جمعياتها وعظم فوائدها من جرائدها ومطبوعاتها ففيها كثيرٌ من الصيدليات وخمس مستشفيات واربعة عشر معملاً وجمعياتها الخيرية نحو الثلاثين وسنأتي على شرح ما تقدم

وقد اعجبني فيها شوارعها الواسعة على النسق الاوربي ونور الغاز وجمال ابنيتها وتنظيمها وكبرها وكثرة الجنائن فيها فان كل بيت امامهُ جنينة وبيوتها الجديدة غير ملتصقة بعضها ببعض فهي بذلك اشبه بحي الاسماعيلية في القاهرة مع ان بيروت القديمة ويعرف اهاليها (داخل الصور) لا تزال على الطرز القديم من جهة ضيق الشوارع ولكن مساحتها صغيرة لا تزيد عن كيلومترين مربعين وهي واقعة في نصف المدينة الحديثة . والواقف في بيروت يرى نفسهُ محاطًا بجبال لبنان الشامخة التي يكللها الثلج بضعة اشهر في السنة ويرى امامهُ البحر

كبساطٍ اخضر متسع وحولهُ الابنية الجميلة بالحجر الرملي وهو حجرٌ هيئتهُ جميلة.
ويوجد قسم في المدينة مبني على لسان داخل في البحر يقال لهُ راس بيروت وهو آخر المدينة في جهة الغرب وهناك المنارة (فنار) وبقربها منزل العلامة الدكتور كرنيليوس فنديك الشهير الذي خدم البلاد العربية بمؤلفاتهِ وتعاليمهِ وتطبيبهِ نحوًا من خمسين سنة وقد نال من الحضرة الشاهانية وغيرها النياشين العالية الشأن اقرارًا بفضلهِ واعترافًا بجميلهِ ومكافأةً لهُ على خدمهِ المرضية وقد اهدى اليهِ ادباء سورية ومصر هدايا فاخرة تذكارًا لاتمامهِ الخمسين سنة بين ظهرانيهم واحتفلوا بذلك العيد احتفالا شائقًا وسموهُ عيد الخمسين (اليوبيلي) وقد استوفت جرائدنا وصف ذلك في وقتهِ. وما سرَّني في السور بين اعترافهم بالجميل فاني لم القَ بينهم احدًا من اهل الآداب الاَّ وذكر امامي هذا الدكتور الفاضل مفتخرًا بهِ وذاكرًا فائدة استفادها من علمهِ او عملهِ

وعند المساء عدنا الى منزل آل جماده الكرام واثر الضعف لا يزال باديًا عليَّ وشعرتُ بتعب في جسمي فوصف لي حضرة الدكتور ابرهيم افندي صافي وحضر اليَّ في صباح اليوم التالي (٢٩ يونيو) واعطاني بعض الادوية فاستفدت منها باذن الله

وقد لبثنا في بيروت عدة ايام زرنا في خلالها كثيرين من الاعيان والوجهاء واتى لزيارتنا كثيرون من المعارف وغيرهم وشاهدنا مدارس ومطابع بيروت ومتنزهاتها واسواقها وحاراتها ولا كثر ما تهمُّ معرفتهُ فيها وسنبسط الكلام على كل فرعٍ منها متحرّين نشر الحقيقة اتمامًا للفائدة .

من جملة ما زرتهُ المدرسة الكلية الاميركية الشهيرة وهذه المدرسة لها فضلٌ على كثيرين من اهالي سورية وهي مبنية غربي المدينة على منحدرٍ فوق البحر في قطعة ارض تزيد مساحتها على خمسين فدانًا وبناؤها من الخارج والداخل جميل ومتين وفيها برج يزيد علوهُ على مئة قدم وفي اعلاهُ ساعة تسمع دقاتها في كل المدينة وترى من مسافة بعيدة . والمدرسة مرتبة بحسب ترتيب مدارس انكلترا واميركا وقد قُسمت الى ثلاثة اقسام استعدادي او تجهيزي وعلمي وطبي وهذا الاخير (القسم الطبي) فرع رسمي من المدرسة الطبية السلطانية في الاستانة العليَّة :

ومعارض المدرسة غنيَّة جدًّا حتى ان معرضيها النباتي والجيولوجي يحسبان من اشهر المعارض في بابهما لاحتوائهما على انموذجات شرقية لاتوجد في بقية معارض اوربا . وعدا معارضها فان بجانبها مرصدًا (رصدخانة) مستوفي الآلات انشأهُ العلامة الفاضل الدكتور كرنيليوس فان ديك السابق ذكرهُ وفيهِ يتمرَّن طلَبة المدرسة في علم الفلك عمليًّا ويُرسَل منهُ يوميًّا رسالتان برقيَّتان بالارصاد الجويَّة الى الاستانة العليَّة ومنها الى اشهر مدن العالم ·

وقد سببَّت هذه المدرسة وغيرها من مدارس بيروت نهضة ادبيَّة دلَّت على ان في الشرق رجالاً ينتهزون فرص الزمان ولا يتركون وسائط التقدم والارتقاء تذهب عبثًا . وهذا القرن قد ادرك لذة العلم ولذلك ترى اغلب مواضيع مباحثهم علميَّة او ادبيَّة او شعريَّة وجمعياتهم كثيرة في مدارسهم وخارجها واكثر اعضاء هذه الجمعيات من الشبان المهذبين . وقد وافق

وصولي الى بيروت مع اقفال بعض مدارسها بفسحة الصيف فتأسفت على عدم حضوري احتفالاتها السنويَّة التي قرأتُ عنها في الجرائد . وبلغني انها كانت في غاية الكمال وسلامة الذوق ولاسيما ماكان منها على سبيل المباحثات والخطب من التلامذة وغيرهم

وقد زرت المدرسة الاميرية فسرَّني حسن بنائها وانتظامها واتمام معداتها ولم تمكني متقضيات الاحوال من مشاهدة ما كنت ارومهُ في هذه المدرسة والمدرسة السلطانية والمدرسة اليسوعية والمدرسة البطريركية وغيرها للسبب المتقدم ذكرهُ ولكنني علمت عن ثقة ان هذه المدارس مما يفتخر بها فالمدرستان الكلية والبطريركية درس فيهما اولاد فخامتلو الصدر الاعظم وغيرهم من الامراء.وغيرهما من المدارس يقصدها الناس من كل فجّ وينسلُّون اليها من كل حدب ومع ان مدارس الحكومة في بيروت حديثة العهد فهي على احسن نظام واتم كمال وكذلك مدرسة الحكمة والمدرسة الاسرائيلية وسواها . وفي الجملة ان بيروت غاصة بالمدارس المفيدة للذكور والاناث واشهر مدارس البنات مدرسة الناصرة ومدرسة العازارية والمدرسة البروسية والمدرسة الاميركية والمدرسة الانكليزية وجميعها غاصَّة بالتلميذات .وقد اطَّلعنا على عدة مقالات من قلم تلميذات المدرسة الاميركية منها ادرج في المقتطف ومنها في اللطائف وغيرها واطلعنا على مقالات كثيرة من تلامذة هذه المدارس في الجرائد المذكورة وفي الاهرام وغيره وهي غاية في الانسجام ورقة العبارة وفوائد المبحث

ومما يفيد ذكرهُ ان كثيرين من الطالبين يأتون من الجبال فقراء

فيشتغلون بكدّ واجتهاد ويدفعون اجرة تعليمهم بما يحصلونهُ بتعبهم وعرق جبينهم بينما نرى غيرهم مع كثرة الوسائط التي تبذل لهم يقصّرون في مضمار المعارف والفنون وهذا دليل على اجتهاد السوريين ونهضتهم الى احراز الفوائد . وطالما خرج منهم الى العالم اناس لا رأس مال لهم سوى العلم والادب فنبغوا في الروسية والمانيا وفرنسا وانكلترا واميركا واداروا مهمات الاعمال وتولوا التحرير في الجرائد الاجنبية وحازوا قصب السبق في المدارس ونالوا الشهادات والجوائز كل ذلك مع ما هو معلوم من حرص الاوربيين على جنسيتهم وغيرتهم على تقديم ابناء وطنهم على الاجانب

اما هيئتهم الاجتماعية فمختلطة ما بين الحسن من العوائد الافرنجية والشرقيّة وليس عندهم محلات لساقيات البيرا وتقل عندهم المواخير واماكن المومسات والملاهي التي تطرح بالانسان الى مهاوي الفقر وتصرفهُ عن لذّة الاجتماع باهلهِ وخلانهِ

ونساء بيروت متأدّبات محتشمات والمسلمات منهنّ يتحجبنَ عن مقابلة الضيوف والمسيحيات يقابلنَ الزائرين باللطف والادب وهنَّ يتكلمنَ لغة او غير لغة من اللغات الافرنجية فان اكثرهنَّ تعلّمنَ في المدارس ولهنَّ المام بفن الخطابة كالرجال ولبعضهنَّ قصائد شعرية ودواوين شعرية وقد اطلعتُ لجمعية باكورة سورية على مجموعة جمعت من خطبهنَّ فاطلق ذلك لساني بالثناء على اجتهادهنَّ . وقد جارينَ الرجال في عدة امور فالموسرات منهنَّ اللواتي تربّينَ على المبادئ الادبيه الّفنَ الجمعيات وانشأنَ على نفقتهنَّ المدارس لتعليم الفقيرات مجانًا مثل جمعية زهرة الاحسان ومدرستها وهذه

الجمعية تتألف من زهرة نساء بيروت ومثل المدرسة التي انشأتها مدام ملحمة وغيرها . ومما اذكرهُ مع الافتخار بنساء المشرق ان احدى السيدات من جمعية باكورة سورية في بيروت كانت تجمع من الاصدقاء بعض دريهمات وخصَّصت في منزلها يومين في الاسبوع لاجتماع المعوزات من النساء على اختلاف الطوائف فكانت تعلمهنَّ مع رفيقةٍ لها وترشدهنَّ الى الاعتناء ببيوتهنَّ والنظافة وتربية بنيهنَّ وتلقي عليهنَّ بعض مقالات بسيطة تقرب من افهامهنَّ ثم تعطيهنَّ ما جمعتهُ من المحسنين او تعلمهنَّ الخياطة وتعطيهنَّ الثياب التي خيطنَها فيذهبنَ شاكرات حامدات . وبلغني ان جمعية باكورة سورية المشار اليها وكل اعضائها من النساء اشتركت بتقديم الهدية للدكتور فان ديك السابق ذكرهُ في عيدهِ الخمسيني . ووزَّعنَ مما جمعتهُ مبلغًا على الفقراء والمساكين وذلك مما يدلُّ على اهتمام النساء هنالك بالعلم واعلاء شأن رجالهِ

ونقدّر مدارس الذكور في بيروت بسبعين مدرسة ومدارس الاناث باربعين عدا الكتاتيب الصغيرة وفيها من التلاميذ اكثر من سبعة آلاف ومن التلميذات اكثر من ستة آلاف ومن المعلمين اكثر من ثلاثمائة وخمسين ومن المعلمات نحو مائتين وخمسين . وقد خرج من هذه المدارس جماعات تفرقوا في انحاء كثيرة من العالم على ما علمت فنالوا قصب السبق وجانبٌ كبير من هذه المدارس للجمعية الخيرية الارثوذكسية وهي جمعية مؤلفة من اربعة وعشرين عضوًا يجمعون الصدقات ويضيفونها الى ما تجود بهِ ايديهم وما يحصلونهُ من ريع الاوقاف وينفقون ذلك كلهُ في سبيل تعليم الفقراء

مجانًا وإغاثة المحتاجين منهم

وقد صارت المدارس الداخلية في بيروت اشهر من نار على علم وكلها تقبل التلامذة باجور قليلة وتعلّم التلاميذ وتعتني بصحتهم وسلامتهم ومنها من ترسل مندوبًا من قبلها كل سنة الى البلاد المجاورة لاخذ تلامذة اليها

• ولا يخفى ان هذه المدارس وإخصها المدرستين الكليتين اي مدرسة الاميركان والمدرسة اليسوعية تعدُّ من اعظم المدارس التي يقلُّ نظيرها في اوربا نفسها اذ ما من عاصمة حوت مدرستين كليتين يخرج منهما كل سنة عدد من التلامذة حائزين على الشهادات البكلورية والطبية مثل هاتين المدرستين المبنيتين في هذه المدينة الصغيرة الزاهرة بالمعارف والآداب

اما جمعيات بيروت ومنتدياتها العلمية فقد سبق الكلام عليها بالايجاز

واما مطابعها فكثيرة اغناها المطبعة اليسوعية واقدمها مطبعة الاميركان وفيها عدة مطابع للوطنيين اتقنوا ادواتها وحروفها حق الاتقان كما تشهد بذلك مطبوعاتهم ويطبع في هذه المطابع عدة جرائد كحديقة الاخبار وثمرات الفنون وبيروت والمصباح ولسان الحال وغيرها . وليس لهذه الجرائد ما لغيرها من الحرية فان مجلس المعارف في بيروت يطّلعُ على مسوداتها قبل طبعها لكي يحذف ما لايوافق نشرهُ وقد تعرّفت ببعض الافاضل اصحاب هذه الجرائد

ولما استرحنا وتحسنت صحتي بحمدهِ تعالى ركبت العربة مع حضرة محيي الدين بك حماده ونجلهِ الاديب وسرنا الى المنتزه المشهور بالحرش وهو

يبعد عن بيروت نصف ساعة وهناك الحدود بين ولاية بيروت وجبل لبنان وهذا الغاب (الحرش) كبير مزروع باشجار الصنوبر من ايام المغفور له ابرهيم باشا جدّ سموّ افندينا الخديوي المعظّم فانهُ رحمهُ الله لما دخل سورية كان من جملة اصلاحاتهِ فيها زرع هذه الاشجار التي انتفعت بيروت وسواها بواسطتها اذ كثرت الوقود للافران وتنقى هواء المدينة وماجاورها من القرى وامتنع تقدم الرمال التي تنسفها الرياح عن بيروت وغيرها والاشجار مغروسة باحكامٍ وانتظام وهي تستعمل لاشياء كثيرة والذي يرى انتظامها لايسعهُ الاّ المدح للذي سعى في زرعها وعلى طريق العربات الموصل الى دمشق حيث تنزهنا حديقة للعسكر تعرف بحديقة الملة وقد أُنشئَت من عهدٍ حديث وبنيت فيها الفسقيات واقيم كشك لدولة الوالي والامراء وغرس فيها من الاشجار والرياحين مايسرُّ الفؤاد ويشرح قلوب الناظرين . ثم وضع فيها بعض الحيوانات والطيور نزهةً للناظرين واقيم بعض من العساكر لحراستها والاعتناء بها ورُتبت الموسيقى العسكرية لتصدح فيها يومي الجمعة والاحد من كل اسبوع بانغامها الشجية

وعلى مقربةٍ من هذه الحديقة عدة قهوات يرتاح فيها الناس عصر كل يومٍ اثر اتعاب النهار ويتمتعون النظر بالمناظر الجميلة الطبيعية في تلك الجهات . وقد اعتاد بعض شبّان بيروت وقواصيها المولعين بركوب الخيل ولعب الجريد ان يذهبوا في اوقات العطلة الى ميدان الحرش ويتسابقوا على ظهور الجياد ويظهروا من ضروب الفراسة ما يرتاح اليهِ الخاطر ويأنس بمرآهُ الناظر حتى لقد ذكرتنا تلك المناظر بايام العرب وما كانوا يأتونهُ من الفراسة .

فوق ظهور الصافنات . ثم على مسيرة نصف ساعة من الحرش مكان يقال له الحازمية وهناك طريق للعربات تعرّج على الجنينة الشهيرة اللبنانية البالغة حد الاتقان في ترتيبها ومغروساتها من اشجار ورياحين ومقاعد ومياه وقد اعتنى بانشائها واتقانها دولتلو رستم باشا سفير الدولة العلية في لندن حالاً ومتصرف جبل لبنان سابقًا وهي حديقة غناء يقصدها اهالي بيروت للنزهة اوقات الفراغ من الاعمال وفيها من كل فاكهة زوجان

وهناك طريق العربات الى بعبدا مركز متصرفية جبل لبنان الشتوي والى الحدث وهي تبعد عن الحازمية نصف ساعة ومن هذه البلدة نبغ المرحوم احمد افندي فارس المشهور وفيها عدة من الامراء الشهابيين والاعيان ومنها ايضًا جناب العالم الفاضل الدكتور يعقوب افندي صروف احد منشئي المقتطف والمقطم . وبالقرب من الحدث كفرشيما التي نبغ منها الشاعر المشهور الشيخ ناصيف اليازجي وآل شميل الكرام وبيت نقلا وغيرهم .

وعند الحازمية حيث تتفرع الطريق الى الشام وجهات لبنان ضريح للمغفور له فرانقو باشا متصرف لبنان السابق وآخر للمرحوم احمد افندي فارس ويرى على جانبي طريق الحازمية اشجار الازدلخت والصفصاف ومن الجهتين البساتين الجميلة كثيرة الفاكهة والخضر

وبعد ان استرحنا هناك وسرحنا الطرف بتلك المناظر الجميلة الطبيعية والصناعية عدنا الى منزل حضرة مضيفنا الفاضل فوجدناه غاصًا بالزائرين ومن الجملة حضرة عزتلو فضل الله بك سبور وكيل وابورات البوستة الخديوية في بيروت وقد اعتنى بتحسين شؤون هذه الوكالة منذ تولى

ادارتها حتى صار الاهالي يفضلون وابوراتها على سائر الوابورات . وقد دعانا الى الغداء في منزلهِ في اليوم التالي فلبينا الدعوة وكان ذلك يوم الاثنين في ٣٠ يونيو سنة ١٨٩٠ فتوجهنا الساعة العاشرة صباحًا الى منزل حضرة سيور البك المشار اليهِ فوجدنا هناك حضرات فضيلتلو الشيخ عبد الخالق السادات وسعادتلو سليم بك نقلا صاحب الاهرام وشقيقه الدكتور ابرهيم بك وهؤلاء من المصريين وحضرات الامير ارسلان ومأمور تلغرافات ولاية شورية وجهورًا من اعيان بيروت يفوق عددهم العشرين وكانت المأدبة على اتم الاتقان وقدمت فيها افخر الوان الطعام وزادها لذةً وانسًا لطف الآدب واكرامهُ ومؤانسة الحاضرين لنا من البيروتيين . وقد رأيت من الجميع حسن الميل الى المصريين والمحبة لهم وايقنت انهم يحسبون انفسهم مرتبطين واياهم بعلاقات التابعية واللغة والجيرة والجنسية وبعد تناول الطعام خرجنا شاكرين حضرة سيور بك على اكرامهِ ايانا ومؤانستهِ لنا

ومما عددتهُ حسنًا لاخواننا السوريين ما بلغني عن ثقة من انهُ لما حدثت الثورة الاخيرة في مصر وهاجر كثيرون الى بر الشام افرغوا لهم المحلات وانزلوهم على الرحب والسعة . وليس ذلك فقط بل انهُ لما صدرت الاوامر من الاستانة العلية بطرد بعض المصريين من سورية التمس الاعيان من دولة الوالي وقتئذٍ ان يخابر دار السعادة بالعدول عن هذا الامر وقال جماعة انهم يكفلون اولئك المطرودون ويتعهدون انهُ لا يبدو منهم حركة ولا غدر وفتحوا لهم صدور المجالس والمحافل واهتموا بهم اهتمامهم بانفسهم وقد علمت هذا الامر وتاكدتهُ من الثقات فاحببتُ ذكرهُ اظهارًا لارتباطنا مع اخواننا

السور بين برابطة المحبة والولاء وان البلادين واحدة كالاخ يلوذ باخيهِ وقت الشدائد والضيقات . وزيادة على ذلك ان كثيرين من وجهاء بيروت واعيانها كانوا يعقدون الجمعيات ويجمعون الاموال ويساعدون بها المحتاجين من ضيوفهم اجزل الله ثوابهم

وفي ذلك اليوم توجهتُ برفقة حضرة نجل محيي الدين بك حماده وحضرة درويش افندي الغزاوي الى الضُّبَيَّة وهو المكان الذي فيهِ الوابور الدافع لمياه نهر الكلب الى بيروت وهذا المكان يبعد عن بيروت نحو ثلاث ساعات على الماشي ولكنَّ العربات تصلهُ باقرب من هذا التحديد . وفي الضبيَّة اوتيل (نزل) وقهوة تابعة لهُ وعدة محلات للاستراحة يقصدها الناس للنزهة وترويض النفس من مشاق الاعمال وهناك (حاووز) حوض كبير لخزن المياه التي تبعث الى بيروت وشلاَّل طبيعي اشبه بالشلاَّلات الصناعيَّة وعدة مغروسات امامها البحر المتوسط من جهة ولبنان من جهة أُخرى وبيروت قبالتها وكل ذلك من المناظر التي تبهج الانسان وتزيح همومهُ

اما مياه نهار الكلب فتجري من ثقب جبل صخري من مغارة تدعى جعيتا موقعها في سفح جبل صنّين ويصب في البحر المتوسط بالقرب من الضبية والى جهة الشرق الشمالي (كبري) جسر يدعى جسر نهر الكلب وعلى ضفتيهِ جبال وصخور هائلة وآثار قديمة منذ مئات من السنين وهناك صورة سنحاريب ملك اشور منقوشة على صخر لا تزال الى الآن وكانت اعمالهُ مكتوبة على الصخور مع ذكر تغلبهِ على فينيقية ثم صورة رعمسيس الثاني ملك مصر

واعمالهِ وفتوحاتهِ عند ذهابهِ الى اسيا وفتوحاتهِ فيها وهناك ايضاً آثار أُخرى اضربنا عن ذكرها حبًّا بالاختصار

ومنذ عهدٍ قريب اهتمت شركة انكليزية بجرّ ماء نهر الكلب المذكور الى بيروت لعذوبة مائهِ ونقاوتها فثقبت جبلاً صخريًا كان حائلاً بين الضبية والماء واستحضرت الماء بعد انفاقها نفقات طائلة على المهندسين والعملة وجرَّت المياه النقية من مصبها عند مغارة جعيتا . وبعد تعب جْزيل وصلت المياه الى بيروت باحتفال عظيم لم يسبق نظيرهُ . ثم ان بيروت كثيرة الآبار حتى تكاد ترى بئرًا في كل بيت فيها (وقيل ان تسمية بيروت مأخوذ من كثرة الآبار فيها) ولكن لما وصلت ماء نهر الكلب استُغني عن تلك الآبار وان ماء بعضها كان ملحًا . وقد حلل حضرة الدكتور يعقوب صروف ماء نهر الكلب لما كان في بيروت فوجدها من انقى المياه وكتب بذلك فصلاً قدمهُ في المجمع العلمي الشرقي على مافي المقتطف . والحق يقال ان مياه بيروت نقية خفيفة لطيفة لاتحتاج الى التقطير ولا التكرير وقلما ترى منزلاً في هذه الايام وليس فيهِ بركة ماء ولا حديقة الاَّ وفيها بركة ولا تزال مناظر الضبية امام اعيني واتذكر كل دقيقة قضيتها هناك وكنت اشعر فيها بتجدُّد قواي اثر الضعف الذي اصابني

وعند المساء عدنا الى بيروت في الطريق التي ذهبنا فيها وهي في وسط البساتين المزروعة توتًا وارضها رملية مائلة الى الاصفرار ومعدنها قوي فمررنا على (كبري) جسر نهر بيروت الذي يصب في البحر وشاهدنا عدة جداول وسواقٍ من المياه تنساب في تلك الجهات انسياب الافاعي ومنظر الاشرفية

(احد احياء بيروت امامنا) وقضيناها ليلة رقّ اديمها وصفا نعيمها في منزل مضيفنا الفاضل

وفي صباح اليوم التالي جاءنا حضرة الدكتور البارع ابرهيم افندي صافي فوجد ان صحتي تقدمت تقدمًا حسنًا فسرّ كثيرًا فامتدحتُ مهارتهُ وشكرت اهتمامهُ لي واعتناءهُ بصحتي . ثم توجهت مع حضرة عزتلو محيي الدين بك حماده لزيارة مستشفى الحكومة السنية فقابلنا هناك جناب الفاضل الدكتور خيري بك نجل احد اعيان الاستانة العلية وارانا مع رفقائهِ الاطباء غرف المستشفى ومعداتهِ فاذا هو كامل الترتيب نظيف للغاية وجميع اسرَّتهِ على احسن ما شاهدت في المستشفيات (الاسبتا ليات) وكان المرضى قليلين وذلك لجودة الهواء واعتناء حضرات الاطباء . ومما زادني سرورًا انس حضرة الدكتور خيري بك ومعاملتهِ مع حضرات رفقائهِ المرضى با لطف والاعتناء والاهتمام الزائد . وبلغني ان معظم الفضل في قلة الامراض عائد لحضرة الفاضل حماده بك رئيس مجلس بلدية بيروت الذي يفرغ جهدهُ اناء الليل واطراف النهار مهتمًا بأحوال النظافة وازالة ما يضرُّ با لصحة العمومية حتى انهُ كثيرًا ما يجول في انحاء المدينة ماشيًا على قدميهِ لرؤية ما يجب رؤيتهُ با لعيان ويساعدهُ في هذا الاهتمام حضرات اعضاء مجلس البلدية الذين هم من وجوه بيروت فاستحق الجميع خا لص الثناء وشكر العموم . وانصرفنا من المستشفى شاكرين لحضرة رئيسهِ والقائمين بشؤُونهِ

ثم زرنا مطبعة ثمرات الفنون فقابلنا حضرة الفاضل عزتلو عبد القادر افندي قباني وقابلنا بما جُبل عليهِ من حسن السجايا وكرم الاخلاق واللطف

واراناغرف المطبعة وبقينا عند عزتهِ برهة فرأينا منهُ جميل خلق وادب وتضلُّع بمعرفة القوانين واساليب السياسة مع علم وذكاء وطباع محمودة . وكنا نشتهي ان نقضي مدةً مع حضرتهِ لولا وفرة اشغالهِ ففارقنا حضرتهُ على امل اللقاء

ثم اتينا المطبعة الادبية فقابلنا فيها حضرة الفاضل خليل افندي سركيس صاحبها ومدير جريدة لسان الحال الغراء ورأينا مطبعتهُ على اتم نظام واحسن اتقان حتى تكاد تضاهي المطابع الاوربية . ومما سرَّنا حسن مؤانسة حضرة خليل افندي ومحبة الجميع لهُ وادبهُ في حديثهِ ثم انصرفنا شاكرين لحضرتهِ على حسن الاستقبال وراجين لهُ زيادة النجاح في الحال والاستقبال

ومما ادهشنا ان بعض اسواق بيروت في داخل المدينة ضيّق حرج وذلك لانها بنيت قبل ايام التنظيم حين دعت الضرورة الى بنائها على هذا الطراز ولكنَّ من يدخل البيوت يرَ في الداخل ما لم يرَهُ في الخارج حيث الارض مفروشة بالمرمر والرخام والبيوت مبنية على اتم اتقان واحسن هندام والنوافذ كلها تطلُّ على البحر فيتجدد الهواء في البيوت وذلك مما يجعل المقام في بيروت احبَّ من السكنى في غيرها من المدن

ومن الذين عرفوا بعلو الهمة واللطف في بيروت حضرة عزتلو محمد رشيد افندي الدنا صاحب جريدة بيروت البهية وشقيق سعادتلو افندم عبد القادر افندي الدنا رئيس مجلس تجارة بيروت فانهُ جمع بين اللطف والذكاء والمؤانسة مع الاخلاص والمروءة ومحل ادارتهِ في مطبعة الجريدة بسوق سرسق الجديدة التي بنيت مكان السراي القديمة . وهناك بنك سرسق ومحل جماعة

من التجار المشهورين منهم الخواجه ميخائيل غبريل شقيق الخواجه يوسف غبريل الذي اقام في منشستر ببلاد الانكليز ومن عهدٍ قريب ذكرتهُ جرائدنا المحلية عند اقترانهِ بكريمة حضرة عزتلو جبران افندي اسبر من اعيان دمشق وفضلائها ووصفتهُ بالامانة والشهامة حتى نال مركزًا مهمًّا في بلاد الانكليز. ومنهم الخواجه نقولا منسى الذي نجح باستقامتهِ ومهارتهِ وغيرهم جماعة من الذين يتعاطون التجارة مع البلاد الافرنجية وعلمت ان لبعضهم اقرباء يرسلون اليهم البضاعة من بلاد الافرنج حيث يقيمون وبعضهم توظف في الحكومة الانكليزية بوظائف مهمة لاستعدادهم . وهنا تأكدت ان السوريين يميلون طبعًا الى التغرب والاسفار كاسلافهم الفينيقيين الذين جابوا الارض وسألتُ احدهم مرةً ما هو سبب حبكم للتغرب فأجابني بقول الشاعر

لولا التغرّبِ ما ارتقى   درُّ البحور الى النحورْ
الساكنون بارضهم   عندي كسكانِ القبورْ

وهم يحسبون ان الغربة تفيد وتزيد الاختبار . وبلغني ان بعض اهالي سورية من التجار وغيرهم يغيبون عن منازلهم زمنًا ثم يعودون الى وطنهم بما يدخرونهُ باجتهادهم فمدحتُ فيهم هذا الميل الوطني لان الذي لا محبة فيهِ لوطنهِ لا يرتجى منهُ محبة لغيرهِ . والى جانب سوق سرسق سوق رعد وهاني وقد بنيت حديثًا على اسلوبٍ جميل محكم وفيها يقيم الصاغة وبالحق ان لصاغة بيروت مهارة ومعرفة ودقة في العمل ولا سيما المعروف منهُ بكسر الجفت وغيرهِ . ولاهل بيروت براعة ومهارة في التجارة ولا يخلو مجلس لهم من ذكر الامور التجارية . والى جهة الشرق من السوق المذكورة الحديقة الحميدية وهي

جنينة مغروسة بالاغراس والاشجار وفيها الرياحين والازهار على نسق الجنينة الازبكية بمصر والمنشية بالاسكندرية ولكنها اصغر من الاولى كثيرًا ومن الثانية قليلاً

وعند آخر الجنينة باب سراي الحكومة حيث يشاهد الناظر بناء فخيمًا شيد من عهدٍ قريب ورتب حسب ذوق اشهر المهندسين . ولغة الحكومة المستعملة في بيروت هي اللغة العربية ولكن المخابرات الرسمية باللغة التركية

وشاهدنا عند عودتنا الى منزل حضرة مضيفنا الفاضل بناء فخيمًا لم يكمل بعد وهو كنيسة للطائفة المارونية . وسألتُ عن سبب تسمية المحل الذي بجانب الحديقة الحميدية "بالبرج" فقيل لي انهُ كان هناك برج كبيرٌ عالٍ توضع فيهِ المؤونة والذخائر الحربية للحكومة وكان يدعى البرج الكشّاف ومنهُ تسمية ذلك المكان بالبرج

وعند وصولنا الى المنزل وجدنا زوارًا كثيرين وما منهم الاَّ من دعانا الى تناول الطعام عندهُ فاعتذرنا لحضراتهم مع الشكر على كرم اخلاقهم . وفي ذلك اليوم زرنا سعادتلو فخري بك نجل المرحوم محمود باشا وهو من اعيان مصر فقابلنا بالمحبة والاكرام والملاطفة وعلمنا بما نالهُ من اخواننا السوريين من الحب والاعتبار حتى اثر الاقامة عندهم على المقام في وطنهِ . وقد زارنا في بيت حضرة حماده بك وكان قد انتخب رئيسًا لمجلس بلدية بيروت ومكث زمنًا في هذه الوظيفة وكان يتجاوز في خلالها عن راتبهِ حبًّا بمصلحة البلدية ولهُ عدة اصلاحات واعمال تذكر فتشكر . وعيّن متصرفًا للبلقاء ثم استعفى واقام في بيروت

ومما لاحظتهُ وسمعت عنهُ قوة جسم البنائين وثباتهم في العمل طول النهار غير مبالين بحرارة الحر وصبارة البرد فاستغربت منهم ذلك . وشاهدت من صناعة النجارين ودقة اعمالهم ما جعلني اثني عليهم وعلى مهارتهم والغريب ان اكثر اصحاب هذه الحرف لم يتعلموا صنائعهم على اساتذة ولا في مدارس بل حصّلوا ما حصّلوهُ بجدهم وباجتهادهم وثباتهم

اما معاملهم كمعمل الورق الذي انشأهُ الخواجات باحوط وثابت فتدل على ميلهم لترقية الصناعة والتجارة ولذلك لا نستغرب نجاح هذا المعمل بهمة اصحابهِ ولا بدع ان استُعمل ورقهُ في مصر والاستانة وسورية وغيرها من البلاد ما دام نظيفاً ومتقناً ومسهّلاً اكثر من غيرهِ . واما معامل الحرير وغيرهِ فعلى اتم نظام واكمل اتقان . وهذه المعامل لادخل للحكومة فيها وانما هي للاهالي ولادخل للشركات الاجنبية فيها وكل عمّالها من الوطنيين

والامر الذي لا اودّ الاغضاء عنهُ الجمعية الصناعية التي أُنشئت في بيروت برئاسة حضرة الفاضل شاهين افندي مكاريوس صاحب اللطائف والمقطم وذلك سنة ١٨٨٣ لما كان في بيروت فانهُ لما رأى وفرة المدارس في بيروت وسورية وكثيرون يخرجون منها ولا صناعة لهم يتعيشون منها تألف مع نخبةٍ من رؤساء الصناعات الماهرين في الصناعة وانشأُوا جمعية دعوها جمعية الصناعة وسنّوا لها قوانين ونظامات وطبعوها وكانوا يعرضون اعمالهم كل سنة في جلسةٍ احتفالية يدعون اليها رجال الحكومة واعيان المدينة وذلك مدوَّن في مجموعتها مع خطب رئيسها الذي اقام ثلاث سنين رئيساً عليها . وقد بلغني ان فضيلتلو سيادتلو عبد الله افندي جمال الدين من اعيان الاستانة

العلية وعلمائها المشهورين واحد انسباء سماحتلو شيخ الاسلام في دار السعادة سابقًا كان يزور رئيس الجمعية المشار اليها لما كان قاضيًا في بيروت وينشطهُ ويستحسن عملهُ المبتكر في تلك الديار

وللسوريين ميلٌ للاختراع ولو لم يكن هذا المجال فسيحًا لهم كما يجب. وقد قام بينهم افرادٌ يستدل منهم ان للشرقي قوة الاختراع كما للغربي منهم رجلٌ يسمى الخواجه الياس اجيا بلغني انهُ اخترع ساعة تمثّل حركة الارض والشمس والقمر والسيارات وقد عرضها في الاستانة واوربا فشهدوا ببراعتهِ ولا سيما لان لهُ قليل إلمام بالقراءة والكتابة . وقد جاء في المقطم نقلاً عن جريدةٍ انكليزية ان شابًّا من بيت المدور اخترع نوعًا جديدًا من تذاكر السفر في السكة الحديدية مصنوعة على طريقة يمكن ان يوضع داخلها اعلانات للمحلات التجارية فتألّف شركة في بلاد الانكليز لاستعمال هذا الاختراع وربح هو منهُ اموالاً طائلة. واخترع سوريٌّ آخر في اميركا بابًا للسكك الحديدية يوضع بجانب الكبري فيسد الطريق من نفسهِ عند فتح الكبري ويمنع سقوط القطار في الماء. ورأيتُ عدة اعمال دقيقة للصناع في بيروت والذين امتازوا بينهم كجرجي افندي صابنجي المصور المشهور وخليل افندي شاول الساعاتي المشهور الذي امتاز على تلامذة مدرسة جنيفيا بعمل الساعات وسليم افندي حداد وغيرهم

واشهر احياء بيروت حي الرميلة او الصيفي حيث منازل اشهر اغنياء سورية كآل بسترس وسرسق وتويني وغيرهم وبيوتهم تحاكي القصور الشاهقة في فخامتها وزخرفتها وحسن اثاثها وقد لبثتُ في بيروت عدة ايام ولم اتمكن فيها من التفرُّج على كل شيء ليس لكبر المدينة بل لانها حوت اشياء عديدة

وكان وقت الصيف وقد ذهب اكثر الاهالي الى لبنان لقضاء هذا الفصل

ذكرتُ فيما سبق شيئًا عن مستشفى الحكومة الذي زرتهُ واشرتُ قبلاً الى وجود غيرهِ من المستشفيات في بيروت كالمستشفى البروسياني المشهور في بيروت "بخستخانة بروسيا" وهذا المستشفى يقبل المرضى الفقراء مجانًا وهوعلى نفقة أُمراء فرسان ماري يوحنا وموقعهُ في راس بيروت قرب المدرسة الكلية على مرتفع من الارض يحيط بهِ حديقة واسعة فيها من كل فاكهةٍ زوجان وقد زرع فيها احسن الاغراس وانفع الاشجار وتتخللها المياه كلها ومحلات المرضى والغرف في المستشفى على معظم ما يمكن من النظافة والاتقان لاعتناء الراهبات الفضلات اللواتي يتولَّينَ الخدمة فيهِ لوجه الله الكريم ورئيستهُ الحالية السيدة لويزا وهي بجسارة الرجال ومعرفة العلماء ونخوة الابطال . وفي هذا المستشفى خدم العلامة الفيلسوف الدكتور فان ديك السنين الطوال ونال من لدن امبراطور المانيا اعلى نيشان يهبهُ جزاء فضلهِ وامانتهِ وكان يشاهد ويطبب في السنة اكثر من اثني عشر الف مريض وكذلك العلامة الفاضل الدكتور يوحنا ورتبات وذلك مجانًا لوجه الله . ويرد على محل المعالجة (كلينيك) اليومية الوف من المرضى في السنة . ويطبب فيهِ الآن اساتذة القسم الطبي في المدرسة الكلية

ومستشفى اليسوعيين ويديرهُ اساتذة الطب في المدرسة اليسوعية وهم يطببون ايضًا في مستشفى الراهبات العازريات وهذا المستشفى مما يخلّد الذكر الحميد لرهبنة العازرية لاني سمعتُ ثناء عاطرًا عليهِ وعلى القائمين بشؤونهِ

والمستشفى الجديربا لذكر المستشفى الوطني للروم الارثوذكس فانهُ أُنشئَ

على نفقة الوطنيين بمال المحسنين ويطبب فيهِ مجانًا الفيلسوف الدكتور فان ديك والدكتور حبيب طحجي والدكتور سمعان الخوري وغيرهم

والاطباء في بيروت كثارٌ واغلبهم من الوطنيين وقد اتصل بي اسماء بعضهم منهم جناب الدكتور ابرهيم صافي طبيبي والدكتور شاكر الخوري والدكتور ملحم فارس والدكتور عبد الرحمن الانسي وغيرهم من تلامذة مدرسة قصر العيني بمصر والدكتور اديب قدورة والدكتور سليم جلخ والدكتوران حبيب وحنا جبور والدكتور الياس شكر الله والدكتور يعقوب ملاط وغيرهم من المدرسة الكلية ومن مدارس أوربا واميركا . وفيها جماعة من الاطباء الاجانب المشهورين ايضًا كالدكتور بوش والدكتور بركستوك والدكتور بوست الجراح الشهير والدكتور لورانج البروسي وغيرهم

والسوريون يغارون على العلم والعلماء ولو قاوموا بعضهم بعضًا في بعض الاحيان وقلما تخلو محافلهم من ذكر افاضلهم المتوفين كالشيخ عبد الغني النابلسي ومحمود افندي حمزة والشيخ ناصيف البازجي والمعلم بطرس البستاني وغيرهم . وقد اطلعت على ديوان شعري للاول وعدة كتب وسأنقل شيئًا عنهُ عند الكلام على دمشق واطلعت للثاني على تفسير للقرآن الشريف بالحروف المهملة وغير مؤلفات شهيرة . واطلعت للشيخ اليازجي على عدة كتب لغوية وعلى مقاماتهِ المدعوة "مجمع البحرين"

ومن اشهر علمائهم المتوفين المرحوم الفاضل الشيخ يوسف الاسير الازهري ولهُ عدة مؤلفات فقهية ولغوية وشعرية وقد اهتمَّ بعض الافاضل بنشرها في

كتابٍ واحد وكان رحمهُ الله متواضعًا انيسًا روى لي بعضهم عنهُ انهُ في مدة حياتهِ لم يبخل على احد طلب منهُ استفادة بشيء وامكنهُ الاجابة عنها وردهُ خائبًا . وكان يساعد الدكتور فان ديك في تنقيح بعض الكتب الدينية وفي أثناء الصيف الماضي جمع بعض الادباء ما رثاهُ فيهِ الشعراء وقالتهُ الجرائد عنهُ وطبعهُ في كتابٍ على حدة

ومنهم العلامة المرحوم بطرس البستاني وهو أوّل من اسّس على نفقتهِ مدرسة عالية درس فيها كثيرون من رجال هذا العصر ومؤلفاتهُ اكثر من ان تحصى فقد بلغني ممن عرفوهُ وعاشروهُ زمنًا طويلاً انهُ كان همامًا حتى اطلق عليهِ لقب الجبار . ومن مؤلفاتهِ محيط المحيط وهو قاموس في العربية نال عليهِ الجائزة الاولى من الدولة العلية ودائرة المعارف وهي اشهر من ان تذكر . كيف لا وقد نالت من حكومتنا السنية ووزرائها واخصهم دولتلو افندم رياض باشا رئيس النظار جانب الالتفات والاعتبار فامدوها بالمال وبالمساعدة الادبية وهي خلاصة ما في مئات من الكتب الافرنجية والعربية وزبدتها . ومعلوم ان مثل هذه التآليف لا يقدم عليها في أوربا الَّا جمعية كبيرة براس مال وافر ولكن صاحب الدائرة اقدم عليها بنفسهِ معتمدًا على قلمهِ وثباتهِ ومساعدة ولدهِ الاكبر المرحوم سليم غير ان الله لم يفسح في اجلهما فقضيا قبل ظهور الجزء التاسع . وقد قرظ هذا الكتاب النفيس العلماء الاعلام والرؤساء الفخام والوزراء الكرام وقد انشأ عدا دائرة المعارف جريدتين احداهما سياسية والاخرى علمية سياسية بقيتا في عالم الظهور نحوًا من سنة عشرة سنة كانتا في خلالها من اعظم الوسائط لترقية شأن العلوم والآداب في سورية

ولا يملّ القارئ من اطالة الكلام عن بيروت واهلها فاني شاهدتُ فيها اكثر مما كتبت وقد ولعتُ بها منذ دخولي اليها ولم افتر عن السؤال عنها واستطلاع اخبارها الماضية والحاضرة شأن الغريب المتشوّق للاطلاع على اخبار الاقطار التي يزورها . ولذلك اذكر شيئًا بالاختصار عن حالتها العمومية

ذكرنا قبلًا ان بيروت فرضة دمشق ونزيد الآن انها فرضة سورية كلها وهي اكبر المواني الاسيوية على بحر الروم بعد ازمير وتجارتها مع الخارج وافرة جدًا وخصوصًا مع اوربا فان اهم وارداتها منها اما صادراتها فقليلة بالنسبة الى الواردات واغلبها الحرير والزيت . وسكانها كما تقدم اكثر من مئة الف نسمة ويرد اليها كثيرون من جبل لبنان وغيره لبيع حاصلاتهم من الخضر والاثمار ولمشترى لوازمهم من الاقمشة وغيرها

واهل بيروت ذوو همة في الاشغال فيقومون صباحًا قبل الشمس ويشتغلون طول النهار بلا ملل كلٌّ في عمله ولا تكاد ترى بينهم باهلًا يتردد بلا عمل الا فيما ندر

وتحتوي هذه المدينة على كل طبقات الناس ففيها الاغنياء واصحاب البنوكة كالسادات بيهم وابناس والخواجات بسترس وسرسق وتويني وغيرهم وفيها المتوسطون كتجار المانيفاتورة واصحاب المخازن وغيرهم . وفيها اصحاب الحرف والصنائع وغيرهم وكل هذه الطبقات تأتلف بعضها مع بعض ولاسيما في ايام المواسم والاعياد حتى تكاد لا تميز بين غنيهم وفقيرهم . وكلهم مجدّون في اعمالهم مواظبون عليها رغمًا عن وقوف حركة الاشغال ولولا ذلك الاجتهاد

لضرب الفقر اطنابهُ فيما بينهم . ويرى المنتقد ان كلًّا من الاهالي مكتفٍ بعملهِ غير ساعٍ الى الايقاع بالآخر ولذلك ترى المزاحمة قليلة بينهم وكلهم على اتم الوفاق كانهم قد ادركوا ان لكل انسان وظيفة في العالم وهذه الوظائف مجموعة معًا تؤلف الهيئة الاجتماعية

وبعد ان لبثتُ مدة في منزل حضرة مضيفي الفاضل عزتلو محيي الدين بك حماده رئيس مجلس بلدية بيروت ولقيت من حسن ضيافتهِ ومؤانستهِ واكرام البيروتيين ولطفهم ما يجعلني اردّد عبارات الثناء تكرارًا عليهم شددتُ الركاب الى جبل لبنان لقضاء بضعة ايام ترويحًا للنفس وتبديلًا للهواء

لبنان

ركبنا من بيروت مركبة لشركة طريق الشام الفرنسوية فسارت بنا الى جهة حرش بيروت ثم الحازمية التي وصفناها فيما مرّ وما زالت تسير بنا في طريق متعرّجة لسهولة السير وانا انظر يميناً ويساراً واشعر بانتعاش في جسمي لبهجة المناظر وجمالها فان الطريق اشبه بخيطٍ ابيض بين صخور الجبل واحراشهِ وينفق عليها سنوياً مبالغ وافرة لاصلاحها وعلى جانبيها الاودية والتلال والقرى العامرة والينابيع والفنادق وكلما زاد الارتفاع كنا نشاهد مناظر طبيعية يتمنى المرء عدم مفارقتها للتمتع برؤيتها واستنشاق الهواء النقي من تلك الاماكن الجميلة

وكانت بيروت امامنا والقرى والمزارع المجاورة لها كانها من نفس المدينة وكأن ساحل بيروت جنة خضراء متصلة بعضها ببعض تسر الناظر كيفما التفت

وما زالت العربة تسير وانا اتمنى طول مدة السفر حتى وصلنا الى عاليه فنزلت في فندق (لوكندة) بسول. وهذا الفندق مبنيٌ في اعلى البلدة على نظام بيوت بيروت الجميلة وهو على احسن ما يرام من حسن الخدمة والنظافة والاتقان ولطف المستخدمين ويحسب من الدرجة الاولى بين النزل التي

نزلت فيها من بعض الحيثيات ولكنهُ يمتاز عنها بحسن موقعهِ ونقاوة هوائهِ فكنت اقف في نافذة غرفتي وارى ما لا اراهُ في بلادٍ سهلية كبلاد مصر فاذا التفتُّ شمالاً ارى قرية عاليه وتحتها وادٍ يتصل آخرهُ بالسهل الممتد الى البحر ثم ارى بيروت وبيوتها الجميلة وسطوحها الباهية بالآجر وامامها البحر الازرق الفسيح والسفن البخارية والشراعية ذاهبة وآيبة في عرض البحر . والسهل المتصل بالبحر دائم الاخضرار حيث غابة الزيتون الشهيرة المسماة بصحراء الشويفات وهي على مسافة ثلاث ساعات على الماشي وقيل انهُ لا يوجد نظيرها في الدنيا كلها . وبعد ذلك يبتدئ الجبل الاجرد بصخورهِ الهائلة وغاباتهِ اللطيفة وكنتُ التفتُ شرقًا وجنوبًا فأرى جبال لبنان وقممهُ الشاهقة واشتهي الصعود الى اعلاها ليتسنى لي رؤية ما لا استطيع ان اراهُ من غرفتي . والى الغرب كنت ارى الطريق الموصلة الى سوق الغرب اما عاليه فبلدةٌ كبيرة بيوتها متفرقة وفيها عدة مبانٍ فخيمة لاغنياء بيروت من وطنيين واجانب اشهرها منزل الوجيه الخواجه نجيب بسترس وهو من اجمل بيوت لبنان ومنزل شكور افندي طراد ومنازل آل بسترس ومنازل مرسلي الاميركان وغيرهم وكلها غاية في حسن النظام والترتيب والجنائن حولها بهيئة تقرُّ الناظر وتسرُّ الخاطر ومياه هذه البلدة على غير ما يرام ولكن في اسفلها نبعًا يقال لهُ عين الرمَّانة يجري الى قريةٍ صغيرة تعرف بهذا الاسم في الوادي الذي تحت عاليه ويحسب من احسن الينابيع لعذوبة مائهِ وكثيرون من المصيفين يجلبون ماء الشرب منهُ

وهذه البلدة مركز مديرية (والمديرية في عرفهم "المركز") وفي فصل

الصيف يرتب فيها بيت للتلغراف متصل ببيروت وبيت الدين مركز متصرفية لبنان وفيها اجزاخانة لحضرة الصيدلي البارع مراد افندي بارودي ويطبب البلدة العالم الفاضل الدكتور اسكندر بارودي الذي يقيم بسوق الغرب وغيرها وفيها عدة مدارس ابتدائية وكنائس وفنادق و يصيف فيها جمهور كبير من اعيان بيروت من وطنيين واجانب

وقد مكثت في عاليه مدة سررت فيها غاية السرور . وفي اثناء تلك المدة قصدت زيارة سوق الغرب فركبت العربة واتيت على الطريق الواقعة في لحف الجبل بين غابات الصنوبر والاشجار المختلفة الاشكال والالوان فسألت السائق ان يستمهل ريثما امتع النظر بتلك المشاهد الطبيعية التي لا تزول من فكري فمشى الهوينا حتى وصلنا الى قرية بمكين وسوق الغرب وهاتان البلدتان متصلتان ويقيم في الاولى مدير تلك الناحية وفي بمكين دير شهير يعرف بدير الشير للروم الكاثوليك وفيه رهبان جمعوا ثروة طائلة فسمح لهم ان يبنوا ابنية يتصرفون بريعها ومتى توفاهم الله ينتقل ملكهم وقفًا للدير فبنوا عدة ابنية فخيمة اشبه بالقصور وهم يؤجرونها للمصيفين والغاب المزروع فوق الطريق من شجر الصنوبر انما زرع بهمة رهبان هذا الدير الذين لا يكفون عن الاهتمام بالعمل والاجتهاد في الامور حتى صاروا قدوة لغيرهم

ولما وصلت الى سوق الغرب زرت الخواجات سرسق والخواجات تويني فلقيت منهم كل كرم واكرام وهؤلاء الذوات من اصحاب الثروة الواسعة وتراهم مع وفرة غناهم متواضعي النفس لبني العريكة لطفاء الحديث يعاشرون الطبقات الفقيرة من الناس و يساعدون من يرون وجوب مساعدته وقد

سبق لنا وصف بعض اعمالهم وهم الذين يملكون مرج ابن عامر الشهير في التاريخ . واما منازلهم فبأعلى قمم البلدة ويصلون اليها بالمركبات تجرها الجياد المطهمة وهذه المنازل غاية في الفخامة والجمال . وهواؤها نقيٌّ من الجهات الاربع وسطوحها كلها من الآجر وهي مبنية على اسلوبٍ متقن ومنظمة تنظيماً فاخراً

وفي سوق الغرب مجلس للبلدية يهتم بشؤونها فتراها نقية داخلاً وخارجاً ويفضلها المصيفون على سواها لجفاف هوائها ولكنها قليلة الماء لوقوعها اقرب راس الجبل كعاليه ولذلك يجلب اكثر مائها من ينابيع بمكين الكثيرة الواقعة في منخفضٍ من الارض . والينابيع تنفجر غالبًا من سفح الجبال فيبني لها الاهالي مجاري منحدرة حتى تصل الى الاماكن المطلوبة حيث يبنون لها حائطًا وفيهِ ميزاب تخرج الماء منهُ فيتلقفونها بآنيتهم ويقال لهذا المحل " العين " والداخل الى سوق الغرب من عاليه يرى امامهُ بناءين فخيمين للخواجات سرسق وتويني ثم يمر تحت دير الروم الارثوذكس حيث مركز البلدة وفي هذا الدير بعض محلات للايجار وهو وقف للكنيسة ويسمى دير مار جرجس وموقعهُ في احسن بقعة وابهج مكان

وسوق الغرب بلدة صغيرة ولكنها لطيفة وفيها فنادق للمصيفين والغرباء وهي لذيذة الاطعمة وكثيرة الفاكهة ورخيصة الثمن وتامة الاتقان وفيها مدرسة داخلية لمرسلي الاميركان استاذها الفاضل جرجس افندي نصار . وفيها اجزخانة لجناب الفاضل الدكتور اسكندر البارودي الذي اكتسب شهرة في كل تلك النواحي بمهارتهِ وامانتهِ في الطب والجراحة . وقد

خصص اوقاتًا لمعالجة الفقراء مجانًا وعين يومين في الاسبوع للفقراء في عاليه وكذلك بسوق الغرب فاكتسب بذلك مزيد الثناء وحسن السمعة وعلى حضرته المعوَّل في الطب والجراحة بتلك الجهات وبالقرب من سوق الغرب قرية عيتات وفيها دار جميلة للسادات بيهم من افاضل بيروت واعيانها · وفي عيتات مساكن البكوات آل تلحوق الكرام وفيها عين ماء جميلة ·

وعلى مسافةٍ وجيزة من عيتات والسوق شملان وعينعنوب وعيناب وعبيه وغيرها من القرى الجميلة الطيبة الاقليم الجيدة الهواء ويرى من هذه الاماكن الحدث وبعبدا والشويفات وكفرشيما والوادي الخ وكلها بلدان آهلة بالسكان نقية الهواء واصحابها اذكياء العقول اقوياء البنية تعرفت بكثيرٍ منهم ولا ازال اتذكر لطفهم وحسن شمائلهم

· وممن تفتخر الشويفات بادابهِ وذكائهِ وعلمهِ وفضلهِ النزيه اللسن المحترم اسبر افندي شقير ترجمان قنصلاتو جنرالية انكلترا الفخيمة في بيروت

وقد ابثنا في عاليه سبعة ايام وكنت انتقل من مكان الى مكان في القرى والمنتزهات المجاورة وانا مسرور الفؤاد ثم تركت عاليه وركبت الدا ليجنس وهي العربة الكبيرة التي تسافر يوميًا من بيروت الى الشام فوصلتُ الى شتوره ظهر النهار وهناك قابلتُ جمهورًا من المصريين المصيفين وغيرهم وشاهدتُ حضرة الوجيه الفاضل الخواجه ابرهيم داود قنصل دولة اميركا بالمنصورة وكان متوجهًا الى زحلة فقابلنا بالترحاب والاكرام وقضيت ذلك النهار هناك على غاية الانشراح والسرور ·

السفر الى دمشق

وبعد ان لبثنا في اشتورة الى ثاني يوم نفخ نفير السفر فأخذنا اماكننا في الركوب وسارت العربة تطوي لاراضي سهل البقاع المشهور بجودة التربة والخصب طيًّا فكان اذ ذاك لبنان وراءنا وغيره من الجبال امامنا وعن يميننا ويسارنا مزارع وقرى كثيرة منتشرة على مدى السهل (وهذا السهل من سهول سوريا المشهورة وان كان اصغر من غيرهِ على نوعٍ وهو كثير الخيرات وافر البركات يرويهِ ماء الشتاء فيأتي بغلاتٍ كثيرة يأخذ الجانب العظيم منها جبل لبنان وفيهِ كثير من الكرمة . وينبع من اراضيهِ اعين عديدة عذبة المياه ويمر في وسطهِ نهر الليطاني . ويخرج من احد جوانبهِ عند قرية الهرمل نهر العاصي المشهور الذي يسير شمالاً مارًّا على حمص وحماه وانطاكية حتى يصب في بحر الروم قرب السويدية وفيهِ مدينة رحلة المار ذكرها)

وبعد نصف ساعة وصلنا لجسر دير زينون وهو جسر على الليطاني وبجانبهِ خان للمسافرين ومحطة للعربة فغيرت العربة هناك خيولها ثم استأنفت السير فوصلنا الى الجبل حيث يبتدئ وادي الحرير وهناك محطة المصنع فغيرت العربة خيولها واستأنفت سيرها في وادي الحرير بصعود قليل (وهذا الوادي مشهور في التواريخ السورية المتأخرة لانهُ جرت فيهِ مواقع كثيرة ايام صولة

الامراء والعشائر وهو منفرج على نوع وقد كان بهِ احراش كثيرة من اشجار السنديان وغيره الاَّ انهُ في هذه الايام قد قلت كثيرًا وانقطع اللصوص منهُ بسطوة الحكومة بعد ان كان لا يجسر على اجتيازهِ الاَّ الجماعات المسلحة وبعد ان قطعناهُ اشرفنا على سهل الجديدة (وهو سهل صغير خصب يمتد ما بين وادي الحرير ووادي القرن واهم قراهُ قرية الجديدة وبعد دقائق وصلنا الى محطة الجديدة وهي بناء جميل في ذلك السهل اقامتهُ شركة العربات وبعد غيار الخيل سرنا بذلك السهل قليلاً فوصلنا لوادي القرن (وهو وادٍ بين جبلين عاليين كانا مكللين بالاحراش ايام دخول ابرهيم باشا سوريا واما الآن فلم يبقَ الاَّ قليل منها كوادي الحرير والسكة بهِ مستوية وكان فيما سلف خطر المرور لكثرة ما كان فيهِ من اللصوص وقطاع الطرق واما الآن فنشر الامان عليهِ رايتهُ وصار كلٌّ يجتازهُ براحة بال وطمأنينة) وبعد ان قطعنا وادي القرن بنحو ٤٥ دقيقة انتهينا منهُ واخذنا نسير صعودًا ثم باستواء وانخفاض مقدار عشرة دقائق فبلغنا محطة ميرن سلو وهي تقرب من محطة الجديدة وعندها نبع ماء عذب غزير وبجانبها بضعة دكاكين ورحلنا منها سائرين في اراضي الديماس وعن يسارنا قرية الديماس وهي قرية كبيرة تحوي على نيف ومائة وخمسين بيت وهي مبنية على مرتفع وفي ضواحيها كثيرٌ من الكرم والتين وفيها بضعة دكاكين وهي مشهورة لانها محطة للمكارين يبيتون فيها عند سفرهم من الشام وعند رجوعهم من بيروت اوخلافها عند ما يكونون آتين دمشق والمسافة بينها وبين الشام على البهائم المحملة ستة ساعات ونصف والمدة التي يقطع بها المكارية الطريق بين بيروت والشام

هي اربعة ايام و بعضهم اذا كان صيفًا واحمالهم خفيفة فثلاثة ايام ولكن الغالب الاول واكثر النقل على ظهور البغال (هذا خلا ما تنقلهُ عربات الشركة) والمكاري المسافر من الشام يبيت ليلتهُ الاولى في الديماس والثانية في خان المرج قرب دير زينون والثالثة في خان ابو دخان او في محل من المحلات القريبة منهُ والرابعة في بيروت) وبعد خمسين دقيقة وصلنا الى محطة الديماس او محطة الصحراء وهي محطة منفردة في البرية بناؤها حسن وبجانبها آبار لجمع ماء الشتاء اقامتها الشركة اذ لا نبع ماء هناك واحيانًا يشح ماؤها المجموع فيحضرون لها الماء من الديماس على العربات . وسرنا من محطة الديماس في سهل متسع لا نبات فيهِ الاَّ البري وهو يمتد من المحطة المذكورة الى ما قرب الهامة وتقطعهُ العربة بخمسين دقيقة و يسمونهُ بالصحراء لان ارضهُ اكثرها صخري لا يصلح للزراعة الاَّ قليلها وهذه الصحراء جيدة الهواء حسنتهُ ولذلك يتخذها العرضي الهمايوني الخامس في اكثر السنين مصيفًا لهُ . وكان عن يسارنا على بعد ساعة ونصف وادي بردى المشهور بكثرة بساتينهِ ورياضهِ وثمارهِ ومياههِ العذبة وعن يميننا وادي عراد باشجارهِ وحدائقهِ ويبعد عنا ساعة ونصف ايضًا على الماشي وامامنا منظر بساتين كثيرة الاشجار والنبات تأخذ مدى النظر ولا ترى نهايتها فكان والحالة هذه لنا منظرًا جمع معظم بهاء الطبيعة وكمال الحسن فمن جبال وسهول ورياض واشجار الخ . وقبل ان نصل الى محطة الهامة التي هي آخر محطات العربة ببضعة دقائق انحدرنا قليلًا فدخلنا بين بساتين الهامة ورياضها الانيقة فكانت البساتين عن يسارنا تمتد الى مسافة بعيدة وعن يميننا اكمة قليلة الارتفاع تغشاها.

البساتين ذات الاشجار والنبات وتنحدر منها جداول الماء بصوت اوقع في السمع من نغمات العود والقيثار وهذا المحل فاتحة جنان الشام من هذه الجهة وما تقدمنا في السير قليلاً الاَّ واخذنا نسمع تغريد البلابل على الافنان وحفيف النسيم اللطيف باوراق الاشجار فزاد اذ ذاك انشراح صدورنا ونسينا أتعاب سفرنا .

وبعد دقائق وصلنا الى محطة الهامة فاذا هي محاطة بالحدائق والبساتين من كل صوب وامامها جدول ماء ينحدر كشلال الى بركة صغيرة هناك يخرج منها الماء لسقاية بعض البساتين المجاورة وعندها قهوة وبضعة دكاكين وتبعد عن قرية الهامة نصف ميل الى جهة الجنوب (اما الهامة فقرية مبنية على اكمة تحدق بها الجنان من كل ناحية وفيها ١٢٠ بيتًا وهي اكبر جميع قرى ناحية سوق وادي بردى الاَّ الزبداني ويقصدها كثيرون من اهالي دمشق للنزهة والانشراح برياضها الواسعة الانيقة وهي كثيرة الثمار ومشهورة بسفرجلها الذي يكبر حجمهُ ويلذ طعمهُ جدًّا وفيها كثير من غياضهِ وغياض الحور ويمر بين بساتينها نهر بردى من تحت قنطرة فيها وبقرب القنطرة ينقسم الى قسمين قسم يظلُّ سائرًا على خطهِ مرتفعًا ليسقي الاراضي العالية ويسمونهُ نهر يزيد . وقد ذكر صاحب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ناقلاً عن التاجي ان هذا النهر احتفرهُ يزيد ابن ابي سفيان اخو معاوية فسمي باسمهِ . والثاني يأخذ بالانحدار لسقاية الاراضي الواطئة ويبقى اسمهُ بردى

وبعد خمسة دقائق اقلعت بنا العربة سائرة مسافة بين بساتين جميلة .

تشرح الصدور الى ان صار سيرنا يلحق اكمة جرداء لا تزرع الاّ شتاء وكان نهر بردى ازاء الطريق عن يسارنا الى ان قربنا من الهامة فقسم من النهر جزء يمر من تحت قنطرة على الطريق وهذا القسم يسمونهُ بالنهر الديراني ثم بعد مسافة جزئية مررنا على قنطرة كبيرة يمر من تحتها نهر بردى وعلى ضفة النهر بجانبها نظرنا قصر شمعايا ببهائهِ واتقانهِ وفيهِ غرف جميلة مزخرفة مفروشة باحسن الاثاث وثمينهِ ويسمح اصحابهُ للمريدين بالتنزه بهِ ويجري حديقة غناء منظمة على الطرزين الشرقي والغربي وموقعهُ عن يمين الطريق وامامهُ عن يسار الطريق قصر لزبونا افندي وهو نظير الاول جمالاً ولهُ دار واسعة مبلطة وبهِ بركة كبيرة وغرف جميلة واسعة وحديقة شهية ويسمح للقوم بالتنزه بهِ ايضاً باذن من اصحابهِ نظير الاول (ودمر قرية للمسلمين ايضاً تحتوي على مائة بيت وهي كثيرة الجنان يقصدها اهالي الشام بكثرة للتنزه وترويح النفس ببساتينها وغياضها الجميلة وتبعد عن القنطرة ثلث ميل وعن قرية الهامة ميلين) ومن هناك سارت العربة بين البساتين ومحاسن الطبيعة تتجلى امامنا فمررنا على قصر الولاية ثم قصر المرحوم الامير عبد القادر الجزائري المشهور ثم على قصر سعادة احمد باشا الشمعة ثم بلغنا جسر الخشب فقسم نهر ثورا وهناك تجلت لنا الطبيعة بابهى محاسنها وتأكدنا صدق ما قيل بان الشام جنة الله في ارضهِ حيث ضاق الوادي وصار سيرنا بين جبلين البعد بينهما نحو نصف ميل وكان نهر اليزيد وثورا يسيران بارتفاع عن يميننا في الجبل والطريق ازاء ثورا وعن يسارنا بردى فيناسب بمائهِ اللجين على حصباء كالدر ورؤس الجبال تكللها اشعة الشمس البهية والاشجار على جوانب المياه

صفوفًا وعند منفرجات الدار تجد غياضًا من اشجار الحور الشاهقة تميس كالعرائس وخرير المياه الفائضة من نهري يزيد وثورا كان في اذاننا كنغم العيدان والحق ان هذا الدار من الحسن على اعظم ما يمكن ان يتصورهُ الانسان وما تقدمنا في السير الاَّ وقسم قسم من بردى وسار يلحق الجبل الآخر من الوادي ثم باقنية محفورة لهُ بالصخر ويسمونهُ بنهر القناوات . ثم بعد قليل قسم قسم آخر يسمونهُ بانياس وكانت هذه الانهر تنساب في مسطح الوادي بين اشجار الحور والصفصاف كالافاعي وبعد برهة قطعت العربة الوادي وتمنينا لو طالت المسافة لنزيد تمتعًا بتلك المناظر الجميلة فدخلنا الى منتهاهُ حيث الربوة والمنشار وهناك منظر يستوقف النظر ويشرح الصدر لان الصخور عند منتهى الوادي على ارتفاع شاهق مسننة كسنان المنشار ونهر بردى يسير بمرجة يحيطها ببساط سندسي وثورا يمر تحت صخر هائل محفور لهُ من قديم الزمن ويزيد مرتفعٌ عنهُ وارض النيرب بادية بجمالها والربوة على منصة حسنها وقبة السيَّار على مرتفعها وجبل قاسيون بمهابتهِ وبساتين المزة ببهجتها . وكنا نظن عند انتهاء الواد المذكور بان دولة الجمال الطبيعي التي شاهدناها قد انتهت بانتهائهِ فخاب ظننا (ونعم الخيبة) اذ اخذت تتجلى لنا على شكل جديد حيث رجعت العربة تسير بين رياض كالجنان مارة بين صفين متناسقين من اشجار الصفصاف المدلاة الاغصان ووراءهما صفوف كثيرة من انواع الاشجار المثمرة والحور وما قطعنا تلك المسافة وانتهى ذلك المكان البهي بوصولنا لصدر الباز واراضي الشرفين الاَّ وتجلى لنا منظر آخر غاية في الجمال وهو منظر مرجة دمشق الفسيحة المكتسية ببساط زمردي على مدى النظر ونهر بردى

يسير في وسطها عن يسارنا ونهر بانياس عن يساره وقنا وات عن يسار هذا ايضاً وهذه المرجة من ابدع المنتزهات منها تتجلى امامك دمشق ويلوح لك منظر مآذنها الكثيرة الشاهقة . وفي وسطها تكية عظيمة لها مأذنتين شاهقتين بناها السلطان سليم عند فتحهِ دمشق وقد انشأت بجانبها الحكومة مخزنًا لبارود العرضي الخامس وآخر لخزن زيت البترول (الكاز) واقيم فيها قهاوٍ ومنتزهات كثيرة وبعض منازل للغربا (أُوتيا لات) . واخذت تسير العربة في وسط المرجة المذكورة والناس على الجانبين جماعات يجمعهم داعي البسط ورباط الود وكلٌ منشرح مبسوط حتى وصلنا المحطة . وكم شاهدنا اثناء سيرنا من الهامة الى دمشق عربات المتنزهين ذاهبة وآيبة تقل الجماعات على اختلاف الدين والرتبة وعلى مدى المرجة كنا نرى من الناس الوفًا ما بين ذاهب وآيب وراجل وراكب وجالس وحدانًا وجماعة يروحون النفس ويرشفون كؤوس الانشراح وكلهم مجموعون تحت راية الهدو يربطهم الود ويجمعهم الولاء . والحق ان هذه المرجة والمسافة ما بين الهامة والشام على غاية الحسن ومنتهى الجمال وقد وصفها كثيرون من الشعراء وتغزلوا بها في اوقات مختلفة كما تغزلوا بغيرها من منتزهات الشام الكثيرة وصالحيتها المشهورة التي جمعت لنزاهتها كثيراً من الاولياء والصالحين وآل الكرامات واذ ارى ذاتي قاصراً عن وصف ما رأيت مما تقدم ذكرهُ فاستعين بهذا المقام على بعض ما نظمهُ الشعراء ليترجم عما في خاطري ويعرب عن ضميري

قال الشيخ عبد الغني النابلسي المشهور في الوادي المار ذكرهُ ومعددًا انهر دمشق ايضاً

ان طيب الهوا هواء الوادي فهو كالروح دبَّ في الاجسادِ
جاءنا بالعبير من كل روضٍ فيهِ طلق الشذا بغير قيادِ
وجواري المياه تركض فيهِ حولنا ركض صافناتٍ جيادِ
اينما كنت منهُ تسمع صوتًا مطربًا بالخرير والتردادِ
ظلهُ لا يزال فيهِ ظليلاً كل حين على اتم المرادِ
وطيور الغصون فيهِ تغنت باللحون لها على الاعوادِ
فكأنّا وقد اتيناهُ صبحًا معَ ريح الصبا على ميعادِ
هو غربيُّ جلق وهو شرق لشموس العطاء والامدادِ
وهو باب النسيم في الشام منهُ نفس طيب يروي الصوادي
حبذا حبذا مجالس أنسٍ فيهِ كانت تزهو باهل الودادِ
طاب فيها النهار حسنًا وراقت نغمات الانشاء والانشادِ
ربوة الشام قد حوت مهد عيسى مهدت بسطةً اتمَّ مهادِ
وارتنا بنبع انهار ماء سبع افلاك سرَّ سبع شدادِ
فيزيد الجوى ويكشف نورا القلب عن كل لاعجٍ مستفادِ
بردى بردت غليلَي حتى بان يأس العذول والحسادِ
ثم وارانيَ الرقيب فمالت قنوات من المعالي الجيادِ
وحلت مزة الهوى بقناة فغزونا بها قلوب الاعادي
يارعى الله ذي المعاهد دومًا وحماها من شر كيد الاعادي
ليدوم الهنا لكل مريدٍ ههنا سالمًا من الانكادِ
ان يوم الوادي ليوم لطيف لست انساهُ ان يوم الوادي

وقال في المرجة والنيربين والشرف الاعلى

ومجلس انسٍ فوق نهر كأنهُ حسام من الفولاذ والمرجة الغمدُ
دعانا اليهِ البسط يومًا فهاجنا غرام كثيرٌ في الحشا ما لهُ حدٌّ
وبالشرف الاعلى من المرجة التي زكا عرفها نشر خفي الهوى يبدو
ورقَّ نسيم النيربين عشية فمنَّ بثوب حشو اذيالهِ ندٌّ
وقد بث ذاك النشر فينا فصافحت لطائفهُ روحًا بها ابتسم الورد
وصف الربيع الغصن من جهة الربا نوافح ازهار لها الروضة الخدُّ

وقال الشيخ عبد الرحمن الخطيب في وصف الربوة

فاحت زهور الربى كالعنبر العطرِ من ربوة الشام ذات المنظر النضرِ
والانس راق بها حيث الجداول قد هزت ذيول الصبا او نسمة السحرِ
والروض مدَّ على اكتاف انهرهِ سجف الزمرد في وشيٍ من الزهرِ
والطل كلل ازهار الغصون وقد شدت بها الورق بالنايات والوترِ

وقيل في النيرب

نظمت زهورًا لؤلؤيه ايدي الرياض الأريضيه
وزهت بحسن كالعرائس في ثياب سندسيه
وتمايلت اعطافها تيك الغصون السمهريه
وتلا بها آي السرور نسيمها وقت العشيه
فتعطرت ارجاؤنا من نيرب الشام البهيه
وتنبهت حقل الربا حين المعطرة النديه
وتفاوضت ما بينها ملحًا بانفاس زكيه

فالورد من رشح الندى نظم العقود الجوهريه
وأثار حمرة خده غمز العيون النرجسيه
والزنبق المسكيُّ من نفحاته عم البريه
والسوسن الغصن البهي زها بطلعته البهيه
يحبوك من طرف اللسان بديع اسرار خفيه
يسقي بصهباء المسرة في كؤوس عنبريه
قم ياندیمي للمنى نجني مفاكهة طريه
ونجول في سحر البيان ونظم قافية عصيَّه
حيث الزمان ملائم يجري على وفق الطويه
حيث الحدائق جنة تزهو بفرش عبقريه
فيها البلابل غردت صبحًا بالحان شجيه
والعندليب يجيبها بفنون تلحين عشيه
والغصن من طرب يميـــد يكاد يسقط بالهويه

وقيل في الوادي . والربوة والمنشار . والنيربين. وجبل قاسيون . وغير ذلك (موشح)

في رياض الشام لطف وصفا وسرور طارد للحزنِ
وبصفوٍ من لها قد وصفا صادق في وصفهِ لم يَمِنِ

دور

يا سقى الوادي بغربي البلاد صوب مزن في رباه يهطلُ
كم بهِ من نزهة فوق المراد رقص الغصن وغنى البلبلُ

وجرى الماء لديهِ بامتداد حولهُ النبت الاغض الاخضلُ
لو علا فوق خيال لطفا رقة جالبة للفطنِ
و بِن يجلس فيهِ لطفا كل حين تحت ظل الفننِ

دور

قم الى الربوة والمنشارِ وتنشق طيب ذاك الوادي
ومياه السبعة الانهارِ دافقات لارتواء الصادي
والبساتين أُولو الازهارِ نفحها المسكي فيها بادِ
روضها ازهر وجهاً وقفا كادت الارض بهِ لم تبنِ
كل من مرَّ عليها وقفا يتمناهُ كحب الوطنِ

دور

يانسيماً فائحاً بالنيربِ بين هاتيك الروابي والرياض
عهدنا الماضي بوصل الربربِ ما لنا عنهُ وان فات اعتياض
شرقي ياصبوتي او غربي نحن مرضى اعين الغيد المراض
طالما قلبي عليهِ رجفا خافقاً من خفق فرط مُمتنِ
ذبت واويلاهُ هجراً وجفا ليت لو كنت اسير الشجنِ

دور

حبذا المرجة ذات الشرفين صادت الناس بصدر البازي
حيث فيها النهر زاهي الطرفين وهو يجري في هواها هازي
ناظراها ليس بالمنصرفين عن رباها بهجة المجتازِ
قنوات ماؤها قد وكفا وعليها بان يأس المحنِ
بردا الرائق حسبي وكفى ياصفا سلساها العذب الهني

دور

والحواكير التي قد نفحت في زهور الياسمين البهجِ
وبارض النيربين انفتحت اعين الزهر بطيب الارجِ
وزناد البسط فيهِ قدحت للذي يقرع باب الفرجِ
وعلا الخير عليهِ وطفا وهو غرقان ببحر المننِ
ولحاظ الغيد تزهو لطفا حيرت اعين حور عدنِ

دور

وبقاسون وسفح الجبلِ وسواقي الماء من نهر يزيد
كم ضريح لنبي وولي صار منهُ النور يبدو ويزيد
والفتى يدرك كل الاملِ دائمًا في ظلهِ ذاك المديد
والاسى والهم عنهُ صرفا وهو بالافراح في عيش سني
ولدر الانس اضحى صدفا في بحار البسط كالمرتهنِ

وقيل من موشح في بعض المحلات المذكورة

يارياضًا غيثها قد وكفا في دمشق الشام ذي الحسن السني
قد ملأت العين انسًا وصفا مذ نشرت الزهر والورد الجني

ومن ادوارهِ

قم بنا نسعى لاعلى الشرفِ نتنسم عرف ذياك النسيم
واتحف الطرف بتلك التحفِ في رياضٍ هي جنات النعيم
بصبا المرجة دائي يشتفي وشذاها يبرئ القلب السقيم
كم عليها من نسيم اشرفا بعد ما صافح شيخ اليمنِ
وعلى ادواحها قد عكفا ناشرًا منها عبير السوسنِ

دور

حبذا روضات انس بهرت بسناها اذ بدت للناظرين
ولارجاء الروابي عطرت وبها قد فاح عرف الياسمين
يا لها جنات عدن زخرفت وبها كوثرها ماءٌ معين
حيث ذاك الغصن نحوي انعطفا وحباني منهُ بالعيش الهني
ومحا بالوصل اوقات الجفا ان هذا من عظيم المنن

اما مياه الشام فاصلها نهر بردى وقد فصلها حضرة الفاضل نعمان افندي قساطلي في كتابهِ المسمى الروضة الغناء في دمشق الفيحاء حيث قال ما حاصلهُ وانهر دمشق الشام اصلها واحد مخرجهُ من جنوبي قرية الزبداني التي تبعد عن الشام تسعة ساعات وهذا النهر بعد ان يسير بسهل الزبداني الخصب وينتهي منهُ ياخذ بالانحدار في وادي بردى الذي كان يسمى وادي البنفسج لطيبهِ ووادي الذهب لغناه حتى يصل الى قرية الفيجة فينضم اليهِ ماؤُها العذب الزلالي المساوي لهُ في الغزارة ثم بعد ان يسقي الاراضي والرياض على ضفتيهِ ويصب بهِ اعين وينابيع كثيرة يصل الى قرية الهامة فيقسم منهُ نهر يزيد ثم قرب دمر يقسم منهُ نهر الديراني وعند جسر الخشب نهر ثورا وبعدهُ بقليل نهر قناوات ثم نهر بانياس ثم ما يبقى يظل اسمهُ بردا وعند وصولهِ الى قلعة الشام يقسم منهُ نهر عقربا وعلى ذلك تكون انهر الشام سبعة وهي بردى . يزيد . الديراني . ثورا . قنوات . بانياس . عقربا وجمع بعض الفضلاء ذلك الاَّ عقربا والديراني بقولهِ

شوقي يزيد ودمع الصب ما بردا وبان يأسي من المحبوب حين بدا

ومدمعي قنوات والعذول حكى ثورا يلوم الفتى في عشقهِ حسدا
على مغنيةٍ بالجنك جاوبها وخلها مات في خلخالها كمدا

دمشق الشام

ولما وصلت بنا العربة الى المحطة كان هناك خلق كثير يستقبلون اصحابهم القادمين من بيروت وما اجتمعوا الاّ وتعانقوا عناق الفرح والاخلاص كانهم اخوان اشقاء والحقيقة ما من شقيق بينهم بل جميعهم اخوان صداقة وتعارف فقط ربطتهم المودة فاجتمعوا تحت لوائها آمنين وكان انعطافهم بالاكثر على من كان غريبًا عن مدينتهم فاستدللت من هذه المظاهر الودية الخلوصية الدالة على اخلاق كريمة وطباع جيدة صحة ماسمعتهُ وقرأتهُ عن اهالي دمشق من خلوص النية وسلامة الضمير وصدق الوداد والرقة واللطف وحب الغريب والانعطاف عليهِ واذ لم يكن لي سابق معرفة باحد من ابناء دمشق ولم يعلم احد بقدومي بواسطة صحبي في بيروت اذ لم أشأ ذلك تخفيفًا من الثقلة وجئت دمشق متنكرًا على حين غفلة فلم يأتِ احد خصوصيًا لاستقبالي . ولكن مع ذلك قد كان جميع صحب اصحابي في المركبة كانهم مستقبلين لي وما منهم الاّ من رحب بي ودعاني بالحاح للنزول في محلهِ شأن القوم الكرام

وبعد ان ودعت رفقائي وصحبهم تقدم اليَّ سليم افندي بسراوي صاحب نزل ديمتري كاراه المشهور ودعاني بكل لطف للنزول في نزلهِ المذكور فلبيت دعوتهُ فاستلم متاعي وسلمهُ لخدمهِ وسرنا معًا على الاقدام الى قرب المحل من المحطة وكنا نتبادل الحديث ونشاهد الناس جماعات على الجانبين ما بين

ذاهب وآيب وكلهم سائرون بهدوٍ وسكينة يروحون النفس ويتنشقون النسيم لغاية تجديد القوى ونوال الراحة من اتعاب اشغال النهار وكانت السكة مرشوشة بالماء وبردى يسير عن يسارنا والحديقة البلدية الغناء عن يميننا ولكلاهما منظر غاية في الحسن والجمال . وما انتهى بنا السير الى آخر حديقة البلدية الاَّ وتجلت لنا سراي الحكومة وسراي المجالس العدية وسراي البوسطة والتلغراف والبوليس يطلون على فسحة واسعة في وسطها بركة ماء وامام ذلك بعض قهاوٍ اشهرها قهوة الورد وكل ذلك لهُ منظر جميل وهو على نظام شرقي محض وكان بجانب بردى بعض الابنية منها نزل فكتوريا وغيره من الابنية وكلها حديثة

ولما بلغنا نزل ديمتري وجدتهُ على طرز شرقي محض نظيف وغاية في الترتيب والذوق وهو عبارة عن دار صغيرة مبلطة الارض في وسطها بركة صغيرة وبها بعض حجر تليها دار اخرى كبيرة متسعة ارضها مرخمة ترخيماً متقناً وفي وسطها بركة ماء كبيرة يتدفق منها الماء باستمرار وتظللها اشجار الليمون ويحيط بها كثير من شوالي الزهور والرياحين وحولها القاعات الفسيحة الواسعة مفروشة فرشاً ثميناً شرقياً وفي بعض قاعاتها برك ماء متدفق وفوق القاعات دورٌ ثانٍ محتوٍ على غرف كثيرة لاجل النوم وبين القاعات ايوان كبير تجاه البركة للجلوس وهذا النزل هو اقدم نزل دمشق وبقي فريداً بها مدة طويلة وقد انشئَ من نيف واربعين سنة ومنشئهُ المرحوم ديمتري كاراه وقد بذل منشئهُ جهد الاستطاعة في اتقانهِ مع المحافظة التامة على النظام الشرقي في كلياتهِ حتى نال شهرة عظيمة وقد نزلهُ كثيرون من الملوك

والامراء والوزراء واصحاب المقامات من اوروبيين واميركان واتراك وغيرهم وكلهم سروا بهِ

وبعد ان استرحنا ونفضنا غبار السفر اتينا خوان الطعام فاذا عليهِ ما لذَّ طعمهُ من الاطعمة الشرقية والغربية والفواكه الدمشقية اللذيذة فاكلنا بلذة وذهبنا الى الايوان فلبثنا برهة ندخن ونشنّف السمع بصوت خرير الماء المنصب في الحوض (البركة) وبانغام الطيور المغردة على الاشجار ثم ذهبت الى حجرتي اطلب الراحة بالنوم من اتعاب سفر النهار

ولما توسدت فراشي اخذت افكر كيف اصرف ايام سياحتي في هذه المدينة ولا رفيق ولا انيس خصوصي لي بها وتصورت الوحشة فقلت في نفسي قد عملت على خلاف الحكمة بعدم طلبي من احد اصحابي في بيروت ان يعرفني على احد في دمشق ليكون لي اليفاً أأنس بهِ وقلت مهما كان اهل دمشق من الطبقة العالية من الانس واللطف وحب الغريب فكيف اجد سريعاً بينهم خليلاً اصطفيهِ وأأنس بهِ وانا لا اعرف احداً منهم وايام اقامتي بينهم معدودة على الاصابع . ثم ارجع فاقول ان لك اعظم انيس وسمير في المناظر الطبيعية وبهجة غوطة دمشق المشهورة اذا عز عليك ايجاد خل في مدينة وصف اهلها بكل مزية حسنة وشيمة رضية وبينما انا في هذه الافكار ارددها غلب عليَّ النوم فنمت نوماً مريحاً ونهضت في الصباح مستريحاً وبعد مناولة الطعام جلست على الايوان واخذت كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لمؤلفهِ الفاضل نعمان افندي قساطلي كي استطلع منهُ احوال المدينة وما حوتهُ ومن ثم آخذ بزيارة اماكنها واستطلاع شؤونها تباعاً (وهذا الكتاب حوى تاريخ دمشق.

منذ نشأتها لغاية سنة ١٨٧٩ م بهِ ذكرت اوصافها من صناعة وتجارة وعلم وبناء ومعابد وآثار وعوائد وغير ذلك بترتيب سهل وقد حوى تفاصيل من مات ودفن بها من اهل البيت والصحابة والاولياء والعلماء الاعلام والصالحين مع ترجمات قصيرة لكل منهم ولمؤلفهِ اعتبار بين قومهِ الدماشقة لما كتبهُ من الكتابات الكثيرة المفيدة وخصوصاً في الآداب واحوال بلادهِ واسباب ترقيها ونهوضها وغير ذلك). وبعد ان طالعت كثيرًا في الروضة الغناء وفهمت الكثير عن احوال دمشق وتاريخها واوصافها صممت على الذهاب والتجول في المدينة

وبينما انا على نية ما ذكر اذ جاءني زائرًا حضرة العالم العلامة فضيلتلو عبد المجيد افندي الخاني النقشبندي المشهور فصرفنا وقتًا بحديث ارق من النسيم والطف وقد سررت بفضيلتهِ غاية المسرة لما هو عليهِ من اللطف وكمال الانسانية والعلم وسعة الاطلاع والمعرفة ودماثة الاخلاق ورقة الطبع وبعد ذلك اخذ يزورنا الناس تباعًا وما ارى منهم الاَّ كل لطيف انيس وممن زارنا في ذلك اليوم اصحاب العزة جبران افندي اسبر وجبران افندي شامية وسليم افندي غزي وغيرهم كثيرون وقد تجولنا في المدينة وفي المساء ذهبنا لبعض المتنزهات وما وصلنا الى المساء الاَّ وانتفى ما كنت اتصورهُ من الوحشة وصرت في المدينة كانني بها منذ سنين فزدت حينئذٍ تاكدًا بما قيل عن دمشق وما ذكر عن لطف الدماشقة وانسهم وحبهم للغريب الامر الذين امتازوا بهِ

وثاني يوم اجتمعت على جناب الحسيب النسيب فضيلتلو السيد عبد

الخالق افندي السادات اذ كان وقتئذٍ في دمشق وجاءها قبلي وحدثني عما راه من القوم والطافهم وحسن اخلاقهم وكان شاكرًا حامدًا ممتنًا وبعد اجتماعي بسيادتهِ كنا نصرف غالب الاوقات بالمسرة والهناء متجولين في المدينة وزائرين منتزهاتها الكثيرة ومعابدها الجميلة العديدة وكنا حيثما توجهنا واينما سرنا لا نصادف الاَّ المؤانسة وحسن المعاملة بنوع يزداد بهِ اعتبار الدمشقيين ويرتفع مقامهم في اعيننا

وقد قابلنا هناك حضرة البرنس ابرهيم باشا المصري فاذا هو نظيرنا حامد القوم شاكرهم وكذلك شاهدنا الخواجه ميخائيل قطه احد التجار السوريين المصريين جاء الشام لزيارة اهلهِ وخلانهِ وصرف فصل الصيف وما طال الحال الاَّ وتعرفنا بكثيرين من اعيان البلاد ووجوهها منهم دولتلو افندم مشير العرضي الهمايوني الخامس ولما زرته برفق رفيقي السيد عبد الخالق السادات رأينا منهُ كل انسانية ولطف وخرجنا شاكرين حامدين وممن زرناهم وزارونا محمد اغا الجيرودي وعبد المجيد افندي نابلسي والياس بك قدسي والسيد محمد الجلاد وآل عظم الكرام وآل عطار الفخام وآل حناوي وغيرهم كثيرون. وقد زرنا بيت صالح بك العظم واخيهِ عبد الله بك وبيت شمعايا وبيت جبارا ويوسف افندي بين باشي امين النزل وزرنا من المعابد اشهر الجوامع والكنائس والمدارس القديمة وكثير من مدارس التعليم ومن الحمامات اشهرها وجبنا المدينة كلها وزرنا منتزهاتها وقلعتها وكلما هو شهير فيها وزرنا الصالحية ومقام ابو يزيد البسطامي ومحيي الدين العربي والشيخ عبد الغني النابلسي ومقام الاربعين ومحلة اهل الكهف وغير ذلك واذ كان.

تعرضنا الذكر اوصاف دمشق وآثارها ووصف ما زرناهُ منها كلٌّ بمفردهِ وبحسب وقت زيارتنا لهُ يجعل الفائدة غير مستوفية اشرنا لذلك اجمالاً هنا وسنأتي على تبويبهِ وتفصيلهِ فيما يأتي

موقع دمشق الجغرافي وقدميتها والقابها وعدد سكانها

دمشق اكبر مدن سورية وموقعها في اواسط البلاد حيث الطول الشرقي ٣٠َ و٣٦° والعرض الشمالي ٣٠َ و٣٣° وهي الى الشرق بانحراف الى الجنوب عن مدينة بيروت وتبعد عنها ١١٢ كيلومترًا وتعلو عن سطح البحر ٢٤٠٠ قدمًا انكليزيًّا ومحيطها تسعة اميال ونيف

وهذه المدينة كثيرة المياه والبساتين وموقعها في سهل خصب جدًّا في غوطة تُعدُّ من افضل جنان الدنيا والى شماليها جبل قاسيون يزيدها بهاء ونضارةً فتصبح كجنة تجري من تحتها الانهار فيها كل انواع الفواكه والبقول وكل ما تشتهيهِ نفس الانسان من مأكول ومشروب ومشموم ونزهة وانشراح وبالنظر الى ذلك والى ما انطبع عليهِ اهلها من حسن السجايا ولطف الطباع حُسبت جنة في الارض وفضّلت باشياء كثيرة على ما سواها من البلدان وهذا شأنها منذ الاعصر الغابرة الى الآن. قال ابو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور منتزهات الارض اربعة ·سغد سمرقند. وشعب بوّان ·ونهر الابلَّة ·وغوطة دمشق . اما سغد سمرقند فهو نهر تحف بهِ اشجار مثمرة بالفواكه والازهار وهي مشتبكة بعضها ببعض ممتدة مقدار اثني عشر فرسخًا . واما شعب بوان ففي نواحي نيسابور فهو مقدار فرسخين فيهِ انهار متدفقة واشجار مثمرة

طيبة . واما نهر الابلة فهو من اعمال البصرة وهو على اربعة فراسخ منها وعلى جوانبهِ الاشجار الطيبة الثمار . واما غوطة دمشق فهي افضل الجميع ومقدارها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً وهي مشتبكة بالاشجار كانها بستان واحد لا تكاد الشمس تقع على ارضٍ فيها وثمارها طيبة لم تكن في غيرها وقال الرحالة ابو الحسين بن جبير الاندلسي يصفها . واما دمشق فهي جنة المشرق . ومطلع نورهُ المشرق . وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلت بازاهير الرياحين . وتجلت بحلل سندسية من البساتين . وحلّت في موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت منصتها احسن تزيين . وتشرفت بان آوى المسيح وامهُ اليها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الاراقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . وقد سمت ارضها كثرة الماء . حتى حنت الى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر . والاكمام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها امتداد البصر . فكل موقع لحظٍ بجهاتها الاربع نغوتهُ اليانعة قيد النظر . ولله درُّ القائل فيها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك هي هيا . وان كانت في السماء فهي تساويها وتحاذيها . اه . قلت ولقد اصاب ابن جبير الرحالة بما قال الاَّ انهُ فاتهُ وصف الاشياء الكثيرة في محاسنها نظير بهائها في الصباح والمساء وايامها المعدودة وما شاكل ذلك وما هذا التقصير الاَّ لقصير عهد اقامتهِ بها وقد جاء الاقدمون بالشيء الكثير عن وصف موقعها وتعداد بهجتها ونضارتها ولطف اهلها ونظافتهم

وحبهم للغرباء ما يطول شرحه ويدلنا على ان اخلاق الدماشقة وحسن مدينتهم كانت منذ الايام الاولى موضوع اعتبار الناس وثنائهم

وكان الاقدمون قدّروا هذه المدينة وحسن موقعها قدرها وقد حذا حذوهم المتأخرون ايضًا فانك لا تطالع كتب السياح واصحاب الجغرافية الّا وتجد بها الكلام الطويل عن محاسن هذه المدينة وتعداد اوصافها فمن ذلك ما قاله (بوجولا) الرحالة الفرنسوي الشهير في كتابهِ سياحة الشرق فانهُ بعد ان عدَّد ما رآهُ بها ووصفها وصفًا يقرب من وصف ابن جبير المار ذكرهُ قال طوبى لمن يسعدهُ الحظ وتوافقهُ السعادة ليصرف ايام عمرهِ في هذه المدينة الجنة الارضية . وقال صاحب تاريخ سورية دمشق بعد اسلامبول وازمير اشهر مدينة في المملكة العثمانية وفيها من الحمامات والسرايات والجوامع الهائلة البناء ما ليس بيسير وان هذه المدينة محاطة بكل ما يقدر المؤرخ ان يعدهُ من عجائب الطبيعة فان العين تشاهد حيثما تنظر مراسح بهجة وغياضًا واسعة ومياهًا جارية بتلك الحدائق الجميلة النامية في وسطها انواع الازهار الشرقية وبحيرات مع ينابيع عظيمة تتدفق منها المياه الفضية اللون محمية بالاشجار الجميلة تكسب المدينة رونقًا جميلاً . اه . فموقع هذه المدينة الجغرافي وما هو عليهِ من الخصب والنزاهة وغزارة المياه والغنا الطبيعي وما كانت عليهِ من حسن الوقع التجاري قبل ان تسير البواخر في البحار قد جعل هذه المدينة عظيمة معتبرة منذ نشأتها الى الآن وضمن راحة سكانها وغبطتهم مع كثرة ما انتابهم من الحروب ومغازي الغازين . وستلبث كذلك الى ماشاء الله اذا مُدَّت منها واليها الطرق الحديدية واتصلت بالعراق .

والحجاز والمواني البحرية وهذه المدينة من اقدم مدن العالم الباقية عظيمة الى وقتنا باجماع آراء المؤرخين والباحثين · وللمؤرخين مذاهب وافكار كثيرة بخصوص اول من بناها ووضع اسسها ولكن كلها لم تسند على اسنادات مكينة والمرجَّح منها هو ما نقلهُ يوسيفوس المؤرخ الشهير بان دمشقيوس ابن كنعان هو بانيها ومع ذلك ان ما يعوَّل عليهِ هو انها كانت مدينة مشهورة في ايام سيدنا ابرهيم عليهِ السلام وذلك منذ نحو ما ينيف على مدة ثلاثة آلاف وثمانمائة سنة وقد بحث صاحب الروضة الغناء في مذاهب المؤرخين في من بنى هذه المدينة وزمن تأسيسها وكانت نتيجة بحثهِ عدم الارتكان على تلك المذاهب الكثيرة وخلاصتهُ ان ما يمكن الجزم بهِ هو انها كانت مدينة مشهورة في ايام سيدنا ابرهيم كما مرَّ يوم طارد آسري لوط ابن اخيهِ الى حوبة الواقعة شماليها وذلك حدث سنة ١٩١٣ قبل التاريخ المسيحي

وتلقب دمشق بجيرون وجلّق والفيحاء والشام واما دمشق فاقدم اسمائها وما زالت تلقب بهِ الى الآن مع ان اسم الشام غلب عليها وقد عللوا سبب تسميتها بهِ بعلل كثيرة لا حاجة الى ذكرها واما لقبها بجيرون فلم يطلق عليها كثيرًا ولهُ تعليلات لا تفيد المقام واما جلّق فيظهر بانهُ كان لقب معروف لها عند العرب الاقدمين سيما في ايام عرب غسان وقد وردت في قصائدهم فمن ذلك ما جاء في قصيدة حسان ابن ثابت الانصاري التي مدح بها آل جفنة الغسانيين واما لقب الفيحاء فربما لقبت بهِ لاتساعها . واما الشام فهو اسم لكل سورية وبما ان دمشق عاصمتها واكبر مدنها واجملها وافضلها فقد أُطلق عليها وما زال الى الآن يطلق عليها لوحدهِا ومقرونًا مع دمشق فيقال الشام . او

دمشق الشام

اما سكان هذه المدينة فمن اجناس مختلفة ولكن اغلبهم من الجنس العربي و يبلغ عددهم مائة وخمسين الف نفس منهم اسلام سنية نحوًا من مائة وعشرون الفًا وشيعية اربعة آلاف وخمسمائة ودروز ونصيرية الفين وخمسمائة ونصارى من كل الطوائف ١٦ الفًا ويهود خمسة آلاف . واما الاجانب بها فقلائل حيث لا يبلغ عددهم الاربعمائة نفس ولكن فيها من المغاربة نيف عن الاربعة آلاف ومن الاكراد ستة آلاف ومن الايرانيين نحوًا من ستمائة والارمن نظيرهم والسريان ثلاثمائة والباقي من الجنس العربي

اهالي دمشق واخلاقهم

يصعب على المدقق الحاذق طوائف اهالي دمشق الآن باجناسهم الاصلية لكثرة ما تقلب على هذه المدينة من الاحوال التاريخية الاَّ ان الراجح الاكيد هو ان اليهود منهم من اصل عبراني لان الملة اليهودية لم يدخل بها اجناس غريبة منذ تاريخها الاول والمسيحيين من اصل يوناني وروماني وسرياني وعربي اي من الاجناس التي كان منها سكان البلاد يوم الفتح الاسلامي ولا يتبادر الى الذهن بان العرب الذين يؤلفون شيئًا من العنصر المسيحي في دمشق هم من العرب الفاتحين فان الفاتحين لم يعتنق احدًا منهم المسيحية بل هم من عرب غسان الذين كانوا مسيحيين يوم فتح الاسلام الشام في صدر الاسلام وكان في دمشق عدد عديد منهم واما المسلمون فمن الاجناس المؤلف منها المسيحيون لانهُ كما لا يخفى بان العدد العديد من الاهالي يوم الفتح و بعدهُ قد اعتنقوا

الاسلام وقد اختلط بالاسلام كثيرون من العرب الفاتحين الذين استولوا البلاد كما ان هذا الخليط قد امتزج بمن ولي دمشق من الاجناس الاسلامية فيما بعد الاّ ان توالي السنين وعدم خروج دمشق من يد الاسلام منذ فتحها العرب الى الآن وانتشار اللغة العربية فيها جعل جميع سكانها عربًا يغارون على لغتهم الشريفة ويجلونها ويعتبرونها ولولا اللغات الطقسية كاليونانية والسريانية واللاتينية والعبرانية التي يستعمل النصارى الثلاث الاول منها في خدمة طقوسهم الدينية واليهود الاخيرة في عباراتهم لما وجد في دمشق وضواحيها اثر لغير اللغة العربية الى حين استيلاء العثمانيين على البلاد ودخول اللغة التركية بين اهلها وما وجد غير هاتين اللغتين اعني العربية والتركية لحين دخول اللغات الاجنبية في البلاد في هذا الجيل بسبب مداخلات الاجانب والاختلاط التجاري والشعبي الذي حدث بجيلنا لقرب المواصلات وتسهيل الاسفار

اما في الوقت الحاضر فالاهالي كما ذكرنا يؤلفون من عرب ومغاربة واكراد واتراك وارمن وسريان اما المغاربة والاكراد والترك وبعض الارمن والسريان فمسلمين واكثر المغاربة هاجروا الى دمشق من عهد قصير اي منذ جاء اليها واستوطنها المرحوم الامير عبد القادر الجزائري الشهير وربما هذا العهد لا يتجاوز الاربعين سنة واما الاكراد فجاءوها من كردستان اولاً تجار غنم ثم لغاية ان يدخلوا سلك الضابطة ولما تقدم بعضهم واتسع رزقهم وارتفعت مراتبهم وكان الدماشقة يؤهلون بالغريب ومدينتهم كثيرة الخيرات والبركات غزيرة الطيبات سهلة المعاش تزايد عدد الواردين

اليها من الاكراد واستوطنوها وصاروا اصحاب نفوذ فيها واتخذوا لانفسهم محلة في صالحيتها بسفح جبل قاسيون يسمونها بحارة الاكراد وقد صارت هذه المحلة عبارة عن مدينة صغيرة ويذهب العارفون بان مهاجرة الاكراد لدمشق يعاصرها مهاجرة المغاربة او انها بدأت قبلها بقليل واما الاتراك فأخذوا بالتردد اليها منذ استولى عليها المرحوم السلطان سليم وفي الغالب لا يلبث بها دائماً الاَّ القليل منهم لانهم يأتونها موظفين وعند انتهاء مدة توظفهم ينقلون لمحلة أخرى او يهجرونها واما الارمن والسريان فغالبهم من النصارى جاءوها باوقات مختلفة واستقروا بها وبعد حرب الروس الاخيرة جاءها كثيرون من الجراكسة ومهاجرو الروملي واستوطنوا بها . اما المغاربة والاكراد فمحافظين على جنسيتهم ولكن الاولين قد مازجوا الاهالي بعض الممازجة وسبب ذلك وحدة اللغة ولكن جميع هذه الاجناس قد تخلقت بكثير من اخلاق الاهالي واتفقت معهم في معظم الصفات الحسنة

اما اخلاق الدماشقة بالاجمال فحسنة رضية وهم يوصفون بالكرم واللطف كما تقدم ويميلون الى السلامة والسكينة والتودد ويحبون الانشراح والبسط وهذه الاميال نجدها بكل طبقاتهم ومراتبهم متأصلة تأصيلاً فلذلك تجد الوقائع قليلة بهذه المدينة بالنسبة الى غيرها من المدن الكبيرة ومعظم حوادثها تجري خارج المدينة بين بعض رجال الطغمة الواطئة الذين يسمونهم معترين وهؤلاء الرجال مع ما هم عليه من الشدة يتصفون بالمروءة والانسانية وقلما تراهم يقومون بشكلٍ مع غيرهم لاعتقادهم بان ذلك حطةً في مقام من كان فتياً واذا تحامل عليهم احد من غير طغمتهم في اثناء الاخذ

والعطاء يحتملونهُ ويلاطفونهُ ويتلافون الامر معهُ بالتي هي احسن واذا اجتمع احسن منهم في المدينة مع خصم لهُ من طبقتهِ لا يحرك لهُ ساكنًا واما خارج المدينة فلاعتب عليهِ با لتصدي لهُ . ولولا هذه الطغمة لكانت المدينة على غاية ما يكون من السكينة . ومما يسر ان الحكومة باذلة جهدها في السعي في ما ياول لمنع اسباب المشاكل بين هؤلاء الجماعة وقدقال صاحب الروضة الغناء باصابة في اطوار الدماشقة . ان الدماشقة قوم امناء ذوو شهامة وناموس ودعة ومؤانسة رقيقو الطباع حسنو المعاشرة سليمو النية والطوية كرماء يحبون الغرباء ويكرمونهم ويميلون الى السلام ويرغبون في البسط والانشراح ولولم يكن في دمشق بعض الاشقياء الذين يسوّدون اسم مدينتهم بما يفعلونهُ من الجرائم لساغ ان تقول بان كل الاهالي في مقدمة السور بين في حسن الاخلاق. اه .

واذا قصدت شراء شيء من دمشقي رأَيت منهُ المؤَانسة والملاطفة ولا تكاد ترى بين الباعة مَنْ هو على خلاف ذلك وشيمتهُ المهاترة بالمشتري والجفاء لهُ في القول وان وجد فنادر والنادر لا يقاس عليهِ وهذا يدلك على حقيقة اخلاق الجماعة فان المعاملة اعظم مظهر لصفات المرء واذا سأَلت احدهم عن مكان وكان يعرفهُ هداك اليهِ بغير تكلف واذا كان لا يعرفهُ ساعدك بسؤَال غيرهِ واوصلك الى قصدك وربما اذا كنت تجهل اشارات المحل اوصلك اليهِ بدون ان يكلفك منة واذا رآك غريبًا زاد في تفهيمك وارشادك واذا سار معك لهدايتك اذهب مللك بالحديث والملاطفة ولا يتقاضاك بارة الفرد لاجل تعبهِ في ارشادك وهذا من دلائل كرامة

الاخلاق ايضاً ·

واذا بحثنا عن اخلاق الدماشقة وصفاتهم رأيناها ناجمة عن اسباب رئيسية تأصلت فصارت ملكية فمنها

اولاً كثرة خيرات المدينة وتمتع جميع الاهالي بها

ثانيًا الصفات العربية المجيدة المشهورة التي انتشرت في هذه المدينة منذ القدم ·

ثالثًا حسن موقع المدينة التجاري لحين فتح ترعة السويس

رابعًا وجود الاعمال بسهولة لكل طبقةٍ وفردٍ من السكان

خامسًا كثرة منتزهات المدينة . فان الاول جعل الناس جميعًا شبعانين غير مشتهين شيئًا من كل ما تتوق النفس اليهِ فولَّد ذلك فيهم خاصة المكتفين وصرت لا ترى نفسًا بينهم تشتهي شيئًا والثاني اوجد بهم خاصة الكرم والشهامة وحب الغريب الخ. وكان الحجاج يفدون كل سنة اليها بكثرة ويباع من البضائع التي تعمل فيها او التي ترد اليها شيئًا كثيرًا فزادت ثروة الاهالي وراحة البال ووجد عند الناس الميل للانشراح والبسط والاجتماع في المنتزهات والرياض وهذه الاجتماعات المؤلفة من اناس مكتفين شبعانين ولَّدت عندهم لطافة الاخلاق ولا يخفى ان الانسان يعمل في دنياهُ لكفايتهِ اولاً وثانيًا لمسرتهِ واذ كانت دمشق كافية اهلها ولا سيما في الايام الغابرة كانوا وما زالوا اصحاب الصفات المتقدم ذكرها وهذه الكفاءة اوجدت عندهم الميل الى السكينة وحب السلام وسلامة النية والضمير فان الانسان عند ما يكون مقلاً خالي الاشغال يميل الى

الحركات والمشاكل وعند ما يكتفي يتغير ويصير ميالاً للسلام والسكينة (وهذا نرى لهُ شواهد كثيرة كل يوم) وعند ما يصل الى هذه الدرجة تجود يداهُ ويرغب في مصادقة الناس واستصحابهم وهذا على ما نظن كان سببًا لتحسين اخلاق الدماشقة وقد ساعد على استمرارهم عليها الاجيال الكثيرة اتباعهم التمدن الشرقي وملازمتهُ لان عدم التنقل من حالة الى أُخرى يضمن بقاء الحالة كما لا يخفى ويمنع اضرارًا كثيرة ويوفر النفقات. والدماشقة متفاوتون في درجات الثروة والمعرفة كغيرهم من سكان المدن الكبيرة الاَّ انهم جميعًا متمتعون بلذة العيش وطيبهِ وما تجدهُ من الفرق الظاهر بين الناس في غير مدن لا تجدهُ في دمشق فان الدماشقة جميعًا متمتعون بلذة المأكل على السواء فانهُ لكثرة وجود المأكولات اللذيذة ورخص اثمانها امكن الفقير ان ينالها بسهولة كالغني وكذا القول في ترويح النفس فانهُ اذ كانت المتنزهات كثيرة جدًّا وقريبة والنفقة بها قليلة امكن الكل الانشراح اسوةً ببعضهم وكذا يمكن القول في الملبس فان ما يلبسهُ الغني يمكن الفقير ان يلبس مثلهُ تمامًا الاَّ ان التفاوت بين الغني والفقير في ذلك هو ان الغني يمكنهُ ان يقتني ملابس كثيرة واما الفقير فلا يمكنهُ كثرة التعداد من ذلك

ومن اخلاق الدماشقة الميل الى النظافة وقد بلغوا بها الغاية في ملابسهم وداخل بيوتهم واجسامهم وقد ساعدهم على ذلك كثرة المياه وغزارتها ووصولها الى كل بيت ومحل من مدينتهم وكونها مجانية لا ثمن لها اما الطرق فنظيفة ايضًا ويساعد على نظافتها اصحاب البساتين فانهم كل يوم يرسلون مئات من خدمهم مصحوبين بالبهائم لجمع القاذورات على انواعها لاستعمالها

سباخًا للاراضي ولولا ذلك لكانت المدينة ملزومة اصرف مبالغ طائلة جدًّا لاجل نظافتها . ولم تكن النظافة مقصورة على اهالي المدينة فقط بل انها موجودة عند الفلاحين ايضًا فان بيوت اهالي القرى واثاثها نظيفة حسنة ويساعد على النظافة عدم وجود احد حافي الاقدام فان الكل من نساء ورجال واولاد يكرهون عادة السير حفاة حتى الفلاحين وادنى مراتب السكان واينما سرت في المدينة ترى الدكاكين نظيفة مرتبة وملابس الناس كذلك ولا سيما أُزر النساء وليس ما يشكى من مسألة النظافة في دمشق الاَّ بعض المحلات التي يسكنها فقراء اليهود ولولا النظافة التي يعتبرها الدماشقة من الايمان كما هي بالحق واعتنائهم بها اعتناء شديدًا وجودة هواء المدينة وحسنهِ لكانت دمشق مدينة ردية المناخ لكثرة مياهها . ومما يساعد على النظافة ايضًا حسن مجاري المدينة وانتظامها فان هذه المجاري مرتبة ترتيبًا حسنًا منذ الايام القديمة والاهالي دائمًا يحافظون على سلامتها وانتظامها وهذه من جملة المآثر التي تدل على تمدن الشرقيين وحضارتهم

الجمال في دمشق

تفاوت الناس في دمشق ثروة ومعرفة لانهم تساووا جمالاً وظرافة فالجمال وزع بينهم توزيعًا عادلاً فكان في جميع مراتبهم وطبقاتهم على السواء وقد ازداد رونق جمالهم بنظافتهم ولطف طباعهم وقبيح المنظر نادر بينهم وقبيحة بالنظر اليهم . وهم في الغالب معتدلو القامات ملتفو الاجسام والطول والقصر نادر بينهم حسنو البنية والتركيب اقوياء العضلات بيض الالوان وجوههم غالبًا مستديرة او طويلة قليلاً يغلب على عيونهم الشهلة والسواد

والزرقة قليلة وشعورهم سوداء او شقراء قليلاً مسترسلة او جعداء وانوفهم ومباسمهم جميلة وبالاجمال يحسبون بطبقة عالية بالجمال بين الشرقيين وقد حسبهم آل السياحة مثال الجمال الشرقي حيث قالوا "ونساؤهم اجمل من رجالهم وهنَّ اقوياء البنية صحيحات الاجسام لانهنَّ يلازمنَ العمل في بيوتهنَّ كل يوم ومن كانت غنية لا تتكل في اعمال بيتها وترتيبهِ على خدمها بل على نفسها وهذا مما يزيد جمالهنَّ ويقوي اجسامهنَّ وكثيرات من غير الفتيات منهنَّ يشتغلنَ في مهن بيوتهنَّ

ويظهر بان دولة الجمال قديمة العهد في هذه المدينة وكذا القوة وعادة خروج النساء لمشترى ملابسهنَّ بدليل ما كان مكتوب على قبة باب البريد الشاهقة (باب البريد سوق من اشهر اسواق دمشق تباع بهِ الانسجة الغالية على انواعها وهو اشبه بالموسكي بمصر من حيث بضائعهِ وتردد الناس اليهِ) وهو

عرج ركابك عن دمشق فانها ... بلد تذل لهُ الاسود وتخضعُ
ما بين جابيها وباب بريدها ... قمر يغيب والف بدر يطلعُ

والحق ان من يمر بباب البريد والاسواق حولهُ حيث تباع المنسوجات حتى باب الجابية يشاهد معرضاً من الحسن يستوقف الابصار حيث يرى القوم مترددين زرافات زرافات ما بين اغيد وغيداء نعم ان نساءَ الدماشقة يسبلنَ المناديل على وجوههنَّ ويأتزرنَ بالازر ولكن ذلك لا يحجب بهجة جمالهنَّ تماماً فسبحان من يخلق ما يشاء وينعم على عبادهِ بما يشاء" انتهى

لغة الدماشقة

لغة الدماشقة لينة رقيقة ولهجتهم حسنة لطيفة توافق طباعهم الاّ انهُ فيها كغيرها من لغات اهالي المدن والامصار العربية شيءٌ كثير من الالفاظ غير الفصيحة وبعض التراكيب المخالفة لقواعد اللغة العربية الفصحى ولا عجب بذلك فان هذا شأن اللغات الواسعة في كل المدن والامصار في كل الازمان والاجيال وقد وجد مثل ذلك في اللغة العربية الشريفة منذ اجيال الجاهلية ولولاهُ لما كانت لغة قريش افصح لغات العرب . وقد كنت ترى في لغة كل قبيلة من قبائل العرب تقريباً من الالفاظ والسمايات وبعض التراكيب ما لا وجود لهُ في القبيلة الاخرى هذا فضلاً عما وجد في بعض لغات القبائل من الالفاظ الاعجمية التي دخلت العربية صحيحة او مشوهة وتمادى العهد عليها فصارت تحسب كالفاظ عربية (وهذا التباين في الالفاظ وجد في اللهجات ايضاً) وهذا سبب وجود الاسماء الكثيرة في لغتنا العربية وغيرها لمسمًّى واحد. ولما اتسع نطاق سطوة العرب وامتد نفوذهم وانبسطت املاكهم وكثر تداخلهم بالامم الاخرى العربية وغير العربية كثر التشويه في اللغة مما صار معهُ خطر عليها فجمع قاموسها ووضعت قواعدها ومع ذلك لم يكفل هذا العمل نطق جميع من يلفظون الضاد بلغة واحدة ولهجة واحدة الاّ انهُ حفظ سلامة اللغة الى ذلك العهد وعليهِ صار للعرب لغتان مختلفتان عن بعضها اختلافاً كبيراً لا يشعر بمقدار حقيقتهِ تماماً الاّ غريب اللغة ومن يقرأ مقالة مكتوبة بلغة عامية صرفة . فالاولى لغة فصيحة وهي التي نكتب بها كتبنا ومؤلفاتنا . والثانية لغة عامية كثيرة

الاختلاف والشعاب وهي ما ينطق بهِ اهالي كل مصر على حدةٍ و يستعملونها في محادثاتهم واخذهم وعطائهم وكل مصر لغتهُ عزيزة عليهِ ومفضلة لديهِ عما سواها وان كانت اكثر تشويهاً وخللاً فوالحالة هذه لا يمكن الحكم بافضلية لغة اهل مصر عن آخر الاَّ بامرين الاول رقة الفاظ اللغة وقربها من الذوق وعدم نفور السمع منها والثاني قربها من اللغة الفصيحة اكثر من غيرها وبخلاف ذلك لا يمكن نقد اصحاب لغة عامية على اصحاب لغة عامية أُخرى واذا نظرنا الى لغة الدماشقة رأَيناها مشوهة كغيرها وفيها من الالفاظ والاصطلاحات ما لا يوجد بغيرها الاَّ انها رقيقة يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع وهي قريبة من اللغة الفصحى اكثر من كثير غيرها من اللغات

الهيئة الاجتماعية في دمشق

الهيئة الاجتماعية في هذه المدينة على حالة حسنة رضية فان الناس على اختلاف مذاهبهم وشدة تمسكهم باديانهم يعيشون مع بعضهم بالتودد والالفة ويطبقون سلوكهم على مبادي السلام والحب ويتعاملون بالحسنى وقد ازداد ذلك بينهم توثقاً بعد حوادث سنة ١٨٦٠ التي كانت نقطة سوداء في تاريخ مدينتهم وقد صاروا الآن لا ينظرون لاختلاف الدين بل الى جامعة الوطن ووحدة التبعة وكلهم عالم بان سعادتهُ وراحتهُ موقوفتان على اخلاصهِ لدولتهِ واخيهِ في الوطنية ولذلك كنا نرى لسان حال كل منهم يقول

اذا اختلفت مذاهبنا فان الحب جامعنا

واما في مجتمعاتهم العمومية والخصوصية فلا تراهم الاَّ مرتبطين بربط الوداد والسكينة يحترمون بعضهم بعضاً وكلٌّ يراعي حاسيات اخيهِ بما يدل

علي ادب صحيح وتمدن اكيد ولذلك لا ينجم عن اجتماعاتهم حتى ولا التي يجتمع بها الوف من الخلق مخاصمات وقلاقل وان حدث في بعض الاحيان شيء فذلك افرادي لا عبرة لهُ وهو ما لا تخلو منهُ مدينة من اعظم مدن العالم تمدنًا وحضارةً

وما سكن كل ملة منهم بمحلة لوحدها منفردة عن الاخرى بناجم عن تباغض وتنافر بل هو اتباعًا لتقليدات قديمة وميل طبيعي برغبة الانسان السكنى مع آلهِ وذويهِ ولانحصار المدينة · وتسهيل مسائل العبادة فان معابد كل ملة قائمة في محلتها فان سكن مسيحي مثلاً في محلة المسلمين بعد عن كنيستهِ والمدينة كبيرة فصادف من المشقة والعناء شيئًا كثيرًا سيما في ايام الشتاء عندما تكثر الامطار والثلوج فتكثر معها الاوحال وكذا القول في المسلم وغيره وامر العبادة مهم في سورية جدًا فان القوم يرغبون بالعبادة كثيرًا ولا ينقطعون عن فروضهم الدينية . ومع ذلك فقد اخذ بعض الناس يخالفون تقليداتهم القديمة ويسكنون بين بعضهم

اما ادبهم الاجتماعي وعوائدهم في مجتمعاتهم وولائمهم وافراحهم واتراحهم فسياتي بك ذلك في محلهِ

طبقات الدماشقة من حيث اسباب ارتزاقهم

يقسم الدماشقة من حيث اسباب معايشهم الى خمسة مراتب الاولى مستخدمو الحكومة والثانية اصحاب الاملاك والثالثة التجار والرابعة الباعة والخامسة المحترفين او اصحاب المهن

فمستخدمو الحكومة يعدون بضعة مئات وهم مختلفو الدرجات في

الثروة والاقتدار كثير و النفقات يتزيون بالزي الافرنجي ونفوذهم بحسب مراتبهم ومكانتها من الاهمية و بيوت الكبار منهم ممتزج الترتيب ما بين النظامين الشرقي والغربي

واصحاب الاملاك اكثر من خدمة الحكومة عددًا وهم غالبًا اصحاب الغناء والثروة الواسعة يشتغلون بادارة املاكهم و ينفقون من ريعها وعوائدهم في ملابسهم ونظام بيوتهم غالبًا شرقية واذا مدت السكك الحديدية المنوي مدها الى دمشق زادت قيمة الاملاك وارتفعت اسعار الاطيان فيتعاظم غنى اصحابها (تنبيه لا يجب ان يفهم من كلامنا بانهُ لا اصحاب املاك في دمشق غير اصحاب هذه الفرقة فانهُ يوجد كثيرون من خدمة الحكومة والتجار الباعة حتى ومن المحترفين ايضًا لهم املاك وما جعلنا اصحاب الاملاك رتبة لوحدها الاَّ بالنسبة للذين لا يتعاطون شغلاً آخر معها)

والتجار كثير و العدد بالنسبة للمرتبتين المذكورتين وهم قسمان قسم يتجر بالبضائع والمحاصيل فقط ان كانت من نتاج البلاد او من الخارج وقسم يتجر بما تنسجهُ من المنسوجات الشامية أو بما يصنعهُ من المصنوعات . وربما اضاف اليهِ أعمال تجارة القسم الاول واغلب تجار هذا القسم يطلق عليهم اسم معلمو الكار (والكار يعرف الدماشقة صنعة النسج وملحقاتها) وهؤلاء التجار بالاجمال اكثر عملاً وحركة من المرتبتين السالفتين ومعلموا الكار منهم اكثر شغلاً وحركة من سواهم

والباعة يبلغون نحوًا من سبعة آلاف نفس وجميعهم ذكور (الاَّ شرذمة قليلة جدًّا من النساء يسمونهنَّ دلالات شانهنَّ بيع بعض الملابس القديمة في

احد اقسام سوق الدلالين (سوق الاروام) المسمى بسوق النسوان) وهم مراتب بحسب ما يتعاطون بيعهُ ولسهولة التعبير يمكن قسمتهم الى قسمين رئيسيين الاول باعة الاقمشة وهم عبارة عن تجار صغار ويدخل بهذا القسم باعة المنسوجات الافرنجية على اختلاف انواعها وباعة الحدايد والاواني الخزفية والخرداوات وباعة المنسوجات الشرقية على انواعها ومن ضمنها منسوجات المدينة من قطنية وحريرية وصوفية وباعة الحبال وما شاكل ذالك . والثاني باعة المأكولات والمشروبات وهو على قسمين رئيسيين الاول باعة العطارات والبهارات والمربيات . والتنبك والدخان ومحاصيل البلدة المقددة كالقمر الدين والمشمش والجوز والزبيب وما هو من نحو ذلك والثاني السمانين (الزياتين) والخبازين والجزارين وباعة الخضراوات والفواكه وما هو من هذا القبيل وجميع الباعة في ملابسهم ونظام بيوتهم على ترتيب شرقي واصحاب القسم الاول يبدأون باشغالهم من ضحى النهار الى ما قبل الغروب بساعة على الغالب . واما بعض القسم الاول من القسم الثاني والقسم الثاني منهُ فيبدأون باشغالهم من الصباح الى الغروب وبعضهم يستمر عاملاً الى ما بعد الغروب بساعتين كل ذلك لمناسبة ظروف الاحوال المتعلقة بالمهنة التي يتعاطاها الشخص

والعملة هم كثير والعدد لكثرة ما في هذه المدينة من الصنائع والمهن المتسعة النطاق فان فيها من انوال النسج فقط ما يبلغ الخمسة آلاف وخمسمائة نول وهذه الانوال مع ما يتبعها من الحرف التمهيدية للنسج والتتميمية لهُ تشغل نحواً من خمسة عشر الف عامل منهم نحواً من خمسة آلاف امرأة ونيف تعمل كل

منهنَّ في بيتها في تسليك الحرير والغزل وما هو من نحو ذلك . وتشغل المهن الاخرى الكثيرة الالوف من الناس ايضاً وسنأتي على ذكرها عند كلامنا على الصنائع

والعملة على كثرتهم يعملون بجد ونشاط من الصباح الى الغروب وعند اللزوم يصلون الليل بالنهار واذا لاحظنا ذلك رأينا بأن أهالى دمشق جماعة عاملين مجتهدين لا كسالى كما يظن المزدرون بهم و يبدون حكماً على ظاهر امورهم . ولا شك بان الحركة في دمشق لها وجهتين وجه ظاهري يقع عليه نظر السائح من اول وهلة وهو حركة التجار والقسم الاول من الباعة و بعض الثاني منهم ووجه لا يراه الاَّ الباحث وهو حركة العمل وهمة الفئة الكبيرة من الاهالي كما تقدم فالوجه الاول اذا نظر اليه بعللهِ ذهب ظن الكسل وعلم بان الحالة المتبعة قضت بها ظروف الاحوال فان عادة معظم التجار الدماشقة وخصوصاً معلمو الكار منهم عمل اعمالهم الكتابية والادارية في بيوتهم ولا يبقون لمراكز اشغالهم التجارية الاَّ البيع والشراء والباعة مدار اعمالهم على المشترين والمشترون من اهالي المدينة والقرى حولها وكلا الفئتين لا يتمكنون من النزول الى الاسواق الاَّ في ضحى النهار فاهالي الفئة الاولى من المشترين من نساء ورجال ترى تفضيل الشغل الباكر في اعمالها او بيوتها على البيع والشراء . والثانية لا تصل المدينة الاَّ في ضحى النهار فلذلك لم يكن من حركة على الباعة المذكورين الاَّ للضحى فيصرفون هذه الفرصة في عياداتهم وتدبير لوازم بيوتهم ونزاهة انفسهم ولولا البواعث المذكورة لرأينا القوم في مصالحهم منذ بزوغ الشمس كما شاهدنا تجار الاغلال منهم فانهم يبدأون باعمالهم

من قبل طلوع الشمس وكذلك باعة المأكولات فان معظم هؤلاء يبدأُون من الصبح ويستمرون في مراكز اعمالهم الى ما بعد الغروب بساعتين وهو آخر وقت تسمح بهِ الحكومة بفتح الدكاكين ولا يأخذون فرصة لراحة في النهار

اما حركة العملة فمستمرة تدل على النشاط والثبات على العمل ولا يراها من السياح الّا قاصدها لوقوع معظم محلات هؤلاء العملة وخصوصاً النساجين منهم في الحواري واذا قصدت محلاً من هذه المحلات التي يسمونها خانات وجدت بهِ بضعة مئات من العملة رجالاً واولاداً منصبين على العمل من بزوغ الشمس الى المساء من غير ان يأخذوا لانفسهم راحة اثناء النهار واذا دخلت البيوت رأَيت النساء مثال العمل والاجتهاد فانهنَّ يدبرنَّ بيوتهنَّ بانفسهنَّ كما تقدم وان كنَّ غير ميسرات فبعد ذلك يعملنَ بشغل يكون لهنَّ منهُ نفع . ولكل ملة من هؤلاء العملة يوم راحة في الاسبوع يمتنعون بهِ عن العمل راحة للجسم من مشاق الاتعاب ورغبة في قضاء بعض المهام فللمسلمين يوم الجمعة واليهود السبت والنصارى الاحد ولهم غير ذلك بعض ايام راحة يصرفونها بالنزهة وترويح النفس وهي اما اعياد دينية واما اعياد وطنيّة أَلفوها من قديم الزمن . ومن كان من هؤلاء العملة معطلاً عن شغلهِ لسبب من الاسباب لا يتأَخر عن صرف جانب من وقتهِ في التنزه لكثرة المنتزهات وقربها من المدينة وقلة النفقة بها

ملابس الدماشقة

ملابس الرجال . يلبس رجال هذه المدينة القنابيز (القنباز كساء يشبه القفطان المصري في كلّياتهِ ولا يختلف عنهُ الّا قليلاً فان القنباز

لهُ قبّة يبلغ ارتفاعها قيراط ونصف واما القفطان فلا والقفطان اكمامهُ طويلة مدلاة عريضة واما القنباز فاكمامهُ ضيقة عن القفطان وطولها الى مفصل الكف او اطول قليلاً) و يتمنطقون فوقها بشالات او زنانير حريريّة او غير ذلك وقد كانوا يلبسون فوق ذلك الطيلسانات الاَّ ان معظمهم عدلوا عن هذه العادة وصاروا يلبسون صيفًا البالطات الخفيفة الحمل وشتاء الفراء او البلطات الثقيلة (ان عادة لبس الفراء قديمة جدًّا في هذه المدينة) وجيعهم يلبسون الطرابيش الاسلامبوليَّة الاَّ ان معظم المسلمين يتعممون فوقها بعمامات صغيرة من قماش الاغاني وطلبة العلم منهم يتعممون بعمم من قماش الشاش الناصع البياض وبعض العملة من النصارى واليهود يلفون على طرابيشهم المناديل وقد اخذ البعض في التسرول او لبس البنطلون واخص من يلبس البنطلون خدمة الحكومة . والنساء متبعات الازياء الافرنجيَّة في ملابسهنَّ وترتيب شعورهنَّ وفي بيوتهنَّ يلبسنَ البنوار واما في زياراتهنَّ والايام الرسميَّة كالاعياد والافراح وما هو من نحو ذلك فيلبسنَ بحسب المودات الافرنجيَّة التي تكون جارية ولا يخرجنَ من بيوتهنَّ الاَّ مؤتزرات مسبلات المناديل (المدورات) على اوجههنَّ الاَّ ان المسيحيات واليهوديَّات منهنَّ لا يسبلنَ مناديلهنَّ الاَّ عند خروجهنَ من احيائهنَّ . اما الازر فهي من قماش قطن ابيض رقيق حسن الصنعة ولهنَّ عناية عظيمة في نظافتها وترتيبها و بعض المسلمات يأتزرنَ بملايات ملونة تشبه الملايا المصريَّة و بعض الغنيات منهنَّ يأتزرنَ بالملايا الحريريَّة و بعضهنَّ بها موشاة بالقصب وقد يبلغ ثمن الملاية العشرين جنيه او اكثر وكلها من شغل المدينة

حجر بيوت الدماشقة وفرشها

حُجر الدماشقة كبيرة واسعة مرتفعة السقوف وهي مربعة او مستطيلة وتقسم الى قسمين علويّة وسفليّة فالعلويّة ما كان منها قديم البناء موشحًا بالادهنة والنقوش يسمونهُ قصرًا وما كان حديثًا بسيطًا يسمونهُ افرنكة . وغالبًا يستعملون هذا القسم العلوي للمنام صيفًا ولهُ وللجلوس شتاء والسفلية وان كانت مستطيلة او مستطيلة وفي وسطها بركة ماء يسمونها قاعة وان كانت مربعة او مستطيلة قليلة يسمونها مربعًا ويستعملون هذه الحجر للاستقبال والجلوس وبعضها للمنام

وترتيب فرش حجر الدماشقة شرقي فانهم يبسطون في وسط الحجرة السجاجيد او البسط العجمية او الحصر ويضعون حولها مما يلي الجدران مقاعد ملاصقة بعضها لبعض حشوها في الغالب صوف او ما يقوم مقامهُ وعرض هذه المقاعد نيف وذراع شامية وارتفاعها اعتياديًا ربع ذراع ويغشونها بالاغشية الحريرية والصوفية او القطنية (واكثر هذه الاغشية من عمل المدينة) ويضعون على المقاعد حول الغرفة مساند ووجوهها من اوجه المقاعد (اعلم ان هذه المقاعد يضعونها حول ثلاثة اضلاع الغرفة فقط حيث ان الضلع الرابع اوطأ من القسم المفروش بنحو نصف ذراع اعتياديًا ويخلعون بهِ احذيتهم وان كان عريضًا يضعون بهِ كراسي ايضًا وفي صدر هذا الضلع امام باب الحجرة فراغ يبلغ ارتفاعهُ ما ينيف على ثلاث اذرع وعرض المتر وعمقهُ ثلث ذراع وفي نحو ثلثهِ الاسفل مقطوع برخامة او حجر ويسمونهُ مصبًا يضعون في صدرهِ مرآة

و يعرضون بهِ بعض الاواني الثمينة وهو غالبًا مزين بالنقوش الجميلة وكانوا فيما سبق يغشونهُ بقيشاني جميل مكتوب عليهِ اسم الجلالة او النبي صلعم او بعض الصحابة رضي الله عنهم اذا كان اصحابهُ مسلمين وان كانوا نصارى فبعض آيات من كتبهم وكل ذلك بخط جميل بنفس القيشاني و يعلقون على الجدران المرايا او القطع الجميلة الخط او الصور ان كانوا غير مسلمين وفي جدران حجرهم كتب كبيرة (الكينية عبارة عن خزانة في الجدار ارتفاعها نحو ذراعين وعرضها دراع وعمقها الثلث او النصف من الذراع و يقسمونها الى ثلاثة طوابق و يبدأون بها على نحو ذراع من سطح الحجرة) يعرضون فيها الاواني الثمينة من صينية وفضية و بلورية وما اشبه ذلك واصل وضعها كما يستدل من اسمها كان لاجل الكتب وذلك في ايام دولة العلم في الشرق و يغشون شبابيك الحجر ببرادٍ جميلة بين ثمينة وغير ثمينة بحسب اقتدار اصحاب المحل المالي فتعطي الحجرة جمالاً ورونقًا وتدفع البرد في الشتاء والاغنياء يزينون حجرهم ايضًا بالتحيف وما اشبه وقد يبلغ فرش الحجرة الواحدة المبالغ الطائلة

اما السرر فقليلة جدًا في دمشق واصطلاحهم ان يفرشوا فُرش نومهم على ارض الحجرة المعدة لنومهم وفي الصباح يطوونها و يرصفونها في خزانة بجدار الحجرة مصنوعة لهذه الغاية يسمونها يوكًا وكل فرش نومهم حشوها الصوف ولا بد لكل صاحب بيت ولو كان فقيرًا من حجرة مفروشة في بيتهِ لاجل استقبال الضيوف و بعضهم جمعوا في نظام حجرهم ما بين الطرزين الشرقي والغربي وهم جماعة من المستخدمين و بعض ذوي اليسار

مجتمعات الدماشقة

للدماشقة في اوقات فراغهم من اعمالهم مجتمعات عمومية ومجتمعات خصوصية فالمجتمعات العمومية غالبها مقوضة واما القهاوي فاغلب من يجلس عليها المسلمون ومعظمها في احيائهم (اما الخانات فقليلة جداً في دمشق بالنسبة لاتساع المدينة ولا يجتمع بها غير رعاع القوم وسفلتهم والبيرات لاجود لها اصلاً وما من امرأة على الاطلاق تخدم في محلٍ عمومي) واما المجتمعات الخصوصية ففي البيوت واكثرها في ليالي الشتاء الطويلة فانهُ لا يأتي الجزء الاخير من فصل الخريف الاّ ويتألف الناس جماعات من كل طبقة ويسهرون بعضهم عند بعض بالمناوبة لنهاية الشتاء وسهرتهم تبتدي اعتيادياً من الساعة واحدة الى الساعة الرابعة او الخامسة عربية وتجاوز ذلك نادر ويصرفونها اما بالحديث واما بالقراءة واما بلعب الورق (ولكن بدون مقامرة) وما هو من نحوهِ . واما بالعابٍ لطيفة يشترك فيها الكل واما بالغناء وضرب الآلة . وقد تكون السهرة من هذه السهرات التي يسمونها ادواراً مؤلفة من ٤٠ نفساً او اكثر وقد تكون من عشرة انفس فقط ولا شك ان هذه السهرات تزيد بالفة القوم وودادهم اما النساء فيسهرن بعضهنَّ عند بعض ايضاً ولكن ليس كالرجال فان اشغالهنَّ لا تسمح لهنَّ بالتفرغ كالرجال . وقاعدتهم في سهراتهم التسوية وبذلك يكمل حظهم وغالباً يكون اعضاء الدور متساوين سناً وان اختلفوا منزلة ويعاملون بعضهم بعضاً باللطف والايناس واذا كان عند احدهم غريب صحبهُ معهُ الى السهرة وعرفهُ باصحابهِ فكان موضوع احتفائهم والتفاتهم وكل يبذل جهدهُ في سبيل انشراحهِ ومسرتهِ ومن ثم يصير ذلك

الغريب صديقًا للكل . وقد يتفق ان يكون بعض الغرباء من آل الفتن والمشاكل ومع ذلك يحتفون بهِ ويكرمونهُ الاَّ انهم يصيرون على حذر ويقظة منهُ . وغالبًا تختم سهرات المسلمين بمائدة حلواء

ولائم الدماشقة

يولم الدماشقة الولائم الكثيرة بعضهم لبعض ولمن كان غريبًا بينهم واذا كانت الوليمة اكرامًا لغريبٍ دعوا اليها اصحابهُ واصحابهم ليزداد سرورًا وانسًا وهذا شأن جميع الامم المتمدنة في ولائمهم لمن كانوا اعزاء عندهم او لمن قصدوا اكرامهُ وتعزيزهُ وقد يدعون الى الوليمة بعض المغنين المطربين وبعد ان يصرفوا جانبًا من الوقت بمبادلة عبارات المودَّة والملاطفة وسماع غناء المغنين يمدّ خوان الطعام ويدعى المدعوون حين ذاك اليهِ وترتيب موائد طعامهم شرقي فانهم يضعون صدرًا من نحاس اصفر قد يكون قطرهُ المتر ونصف على كرسي ارتفاعهُ نحو من نصف ذراع ومن ثم يرتبون عليهِ صحف الطعام الملونة ترتيبًا يدل على الذوق السليم ولهم ذوق في الاطعمة وتلونها ويضعون بجانب الحجرة ان كانت كبيرة والاَّ ففي غيرها صدرًا اخر عليهِ انواع الحلواء الطيبة والفواكه اللذيذة وبعد ان يتناول المدعوون الطعام اشكالاً والوانًا يذهبون الى مائدة الحلوى والفواكه ويأكلون ما طاب لهم وصاحب البيت عامل في كلما يأول الى راحتهم وانبساطهم يذهبون فيغسلون ايديهم ويعودون الى اماكن جلوسهم فيشربون القهوة ويدخنون (اغلب تدخينهم بالنارجيلة) ويصرفون السهرة ان كانت الدعوة مساء بالسماع ان كان والاَّ فبالاحاديث وان كانت الدعوة نهارًا صرفوا جانبًا من

الوقت ومن ثم ينصرفون فيودعهم صاحب المنزل بالشكر والامتنان لزيارتهم له والاعتذار لهم عن تقصيره بحق واجبهم. ومن العيوب العظيمة عندهم ان يذكر الانسان ما اكرم بهِ ضيوفهُ . وان كانت الوليمة بين المسيحيين او اليهود جلس النساء مع الرجال على مائدة الطعام وان كانت مسلمين يجلس الرجال وحدهم لداعي الاحتجاب . اما جلوسهم على الطعام ففي غاية التأدب وكلامهم على المائدة بما يناسب المقام وترتيب ولائمهم عند كل طبقاتهم واحد الاَّ ان بعض الاغنياء ومستخدمي الحكومة قد يجعلون احيانًا ترتيب موائد ولائمهم بحسب ترتيب الافرنج

عوائد الدماشقة في افراحهم واتراحهم

تختلف عوائد الدماشقة في ذلك اختلافًا كبيرًا فان لكل ملة منهم عوائد في ذلك تختلف عن عوائد الملة الاخرى ولما لم يتسهل لنا الوقوف على ذلك لقصر مدة اقامتنا في دمشق اعرضنا عنهُ مشيرين على من رام معرفتهُ ان يطالعهُ بالروضة الغناء .

ابنية دمشق

ابنية هذه المدينة عالية متصلة بعضها ببعض لا فسحة بين الدار والاخرى ولا تحتوي الاَّ على دورين فقط وقائمة من حجارة بسيطة الى ما فوق الارض باربعة اذرع ثم من طوب نيّ (لبن) وخشب وكلها مازورة بطين احمر او جير (كلس) وكذا الأسطحة . ولا نظر لها من الخارج واما من داخل فهي دور فسيحة جميلة مزخرفة بانواع الدهان والنقوش في صحنها برك الماء

محفوفة باشجار الليمون وغيره مع كثير من النباتات العطرية والزهور الحسنة وفيها القاعات الجميلة والحجر المزخرفة وجميعها مبلطة بالرخام وغيره على اشكال كثيرة و يوجد في هذه المدينة دور عظيمة قديمة وحديثة يقصدها اهل السياحة للفرجة واشهر دورها القديمة دار عبد الله بك العظم فانهُ يوجد فيها كثير من المقاصير والقاعات والحجر البديعة العلوية والسفلية والبرك الكبيرة وقيل انهُ فيها ثلاث مئة وستين حجرة

ومن الدور الحديثة بحارة النصارى دار حبيب افندي صباغ بناها المرحوم متري افندي شلهوب وتم بناؤها سنة ١٨٦٦ م . ودار جبران افندي شامية بناها المرحوم أنطون افندي شامي وتم بناؤها سنة ١٨٦٦ م . ومن دور اليهود دار المرحوم شمعايا ودار يوسف عنبر ومن دور المسلمين دار سعادتلو محمد سعيد باشا امير ركب الحاج الشامي ودار سعيد افندي قوتلي . ودار سعادتلو محمد حسن باشا البارودي . وغير ذلك كثير وجميعها على نسق شرقي واذا قصد احد زيارة هذه الدور للفرجة استقبلهُ اهلها بالبشاشة والترحاب اما مجموع دور دمشق فيبلغ ١٤٧٣٠ دارًا

اسواق دمشق

اسواق دمشق كثيرة العدد وتحتوي نحوًا من سبعة آلاف دكان وهي بين مجموعة ومتفرقة فالمجموعة يطلقون عليها اسم المدينة وتحتوي على ٣٨ سوقًا اشهرها باب البريد وموقعهُ تجاه باب الاموي الغربي وسوق مدحت باشا وهو يحتوي على عدة اسواق قد نظمهُ مدحت باشا اثناء ولايتهِ وهو جميل شاهق وقد تمَّ بعدهُ وسوق الحميدي انشئَ حديثًا في عهد ولاية

حمدي باشا. وكل هذه الاسواق عالية مسقوفة. واما الاسواق المتفرقة فكثيرة وكثير منها بين الحواري. واهم هذه الاسواق الممتد من باب الجابية الى باب مصر (بوابة الله) فانك تسير فيها مسافة طويلة. ولكل سوق من الاسواق التي يطلق عليها اسم المدينة اصناف خاصة تباع بهِ. وجميع اسقف دكاكين المدينة عقود عملت كذلك اتقاء الحريق. وقد كان امام الدكاكين مصاطب فازيلت في سنة ١٢٨١ هجرية في ايام ولاية محمد شرواني باشا

خانات دمشق

في دمشق ١٣٩ خاناً متفرقة في انحائها فمنها ما هو خاص بالتجار وموقعهُ ضمن المدينة (الاسواق المجتمعة) ومنها ما هو للبهائم ولوازم المكارين وهو متفرق في انحاء البلد واشهر خانات التجار واكبرها خان اسعد باشا وهو مشهور جداً وقديم موقعهُ في سوق البزورية (العطارين) ويقيم بهِ اشهر التجار وخصوصاً المتجرون الى بغداد ولجمالهِ وحسن منعة بنائهِ وخصوصاً بناء بابهِ يقصدهُ السواح للفرجة ولهُ قبة شاهقة وبهِ بركة متسعة وحجرهُ العلوية والسفلية قاعات مزخرفة بزخارف جميلة قديمة وبانيهِ وباني بيت عبد الله بك المذكور هو اسعد باشا العظم في ايام ولايتهِ على دمشق التي كانت في سنة ١٧٤٥م. وثاني هذا الخان في العظمة والاتساع خان سليمان باشا اخذ في بنائهِ في نحو سنة ١٧٣٢م. ويوجد كثير غيرها. واما الخانات الثانية فاشهرها بسوق الخيل والعمارة وباب المعلا والشاغور

قهاوي دمشق

في دمشق ما ينيف على مئة وعشرين قهوة بين كبيرة وصغيرة. وهي

منتشرة بانحاء المدينة وما كان على الطرز القديم منها فكثير وثمن فنجان القهوة خمسة بارات واما في الحديثة او المنظمة تنظيمًا جديدًا فثمن الفنجان من عشر بارات الى العشرين واكثر القهاوي الحديثة انشئت في المرجة فيجتمع فيها الناس ليلاً ونهارًا في فصول السنة الثلاث وهي الربيع والصيف والخريف

حمّامات دمشق

اجمع اهل السياحة في انحاء الممالك العثمانية ومعظم الديار الشرقية على تفضيل حمامات دمشق عن غيرها لا تقان هندستها وانتظامها وغزارة مياهها وحسن خدمتها واعتناء اصحابها بالمستحمين وهندسة جميع حمامات دمشق واحدة فان الحمام ينقسم الى دائرة خارجية في وسطها بركة ينسكب فيها الماء من اربعة او خمسة انابيب وحولها مصاطب مفروشة باثاث حسن يخلع عليها المغتسلون ثيابهم ويقدم لهم ما يلزمهم من المناشف والبشاكير . ودائرة للاستحمام تقسم الى قسمين خارجي وداخلي ولكلٍ منها اجران ولكل جرن انبوب ماؤهُ حار وفي بعض الحماميم للجرن انبوبان واحد ماؤهُ حار وآخر ماؤهُ بارد. اما سقف دائرة الاستحمام فعقد ذو نوافذ صغيرة مستديرة يغطيها بلور وسقف الدائرة الخارجية قبة شاهقة

وعدد حمامات دمشق ٥٨ حمامًا متفرقة في انحاء المدينة اشهرها حمام القيشاني وجدران الدائرة الخارجية منهُ مغشاة بصحف القيشاني النادر المثال البديع الصنعة وحمام الخياطين . وحمام النوفرة . وغير ذلك كثير من الحمامات المشهورة

جوامع دمشق

جوامع دمشق كثيرة متفرقة في كل انحائها وتبلغ ١٥٢ جامعًا ما عدا المدارس الكثيرة وترب الاولياء العديدة التي تقام بها الصلاة وشعائر الدين والكلام عنها يستغرق المجلدات ولأجل الفائدة تتكلم باختصار عن اكثرها شهرة واعتبارًا

فاولاً جامع الاموي وهو من اكبر جوامع المسلمين واقدمها واشهرها واجملها واتقنها بناهُ امير المؤمنين ابن عبد الملك ابن مروان وذلك من سنة ٨٩ الى سنة ٩٦ هجرية وجمع اليهِ اشهر الصناع من مملكتهِ المتسعة واتاهُ باثني عشر الف صانع من بلاد الروم ايضًا فاتى عظيمًا جميلاً متقنًا بالنقوش الجميلة والادهنة البديعة وانفق عليهِ الملايين الكثيرة ورصف ارضهُ بالبلاط الاصفر والرخام وكان من يدخلهُ ينشرح صدرهُ ويزول الكرب عنهُ وهو ولاشك من اعظم ابنية الاسلام واشدها متانة وعظمة وطولهُ من الشرق الى الغرب مئتا خطوة وعرضهُ من الشمال الى الجنوب مئة وخمسين خطوة وجدرانهُ شاهقه متينة كجدران القلاع وفي صحنهِ بركتا ماء على كلٍ منهما قبة قائمة على اعمدة متينة ومن داخلهِ رواق على جهاتهِ الاربع قائم على اعمدة وسوارٍ عالية وحرمهُ مستطيل من الشرق الى الغرب وسقف الحرم قائم على اعمدة عظيمة شاهقة وفي وسط السقف المذكور قبة عالية جدًا مغشاة بالرصاص وعلى راسها هلال مرتفع ويسمونها قبة النسر. وفي وسط الحرم قبة بغاية الجمال والمهابة وتسمى قبة النبي يحيا وهي قائمة على اعمدة متقنة الصنعة وفيهِ ايضًا اربعة محاريب لاصحاب المذاهب الاربعة بنيت سنة ٧٢٨ هجرية . وفي الجامع كثير من الحجر المختصة

بالزيارات منها مشهد سيدنا الامام علي وسيدنا الحسين وسيدتنا عائشة رضي الله عنهم وغير ذلك كثير. وكل يجتمع بهِ عدد غفير من العلماء والمدرسين والائمة والسامعين والقارئين والمصلين ويضاء بهِ ليلاً مئات من المصابيح والقناديل حتى تخال الليل نهارًا ولهُ ثلاث مآذن الاولى مأذنة عيسى واقعة بشرقيهِ ويقال بانهُ لا مثيل لها بالارتفاع بين جميع مآذن الاسلام وتعلو عن الجامع اكثر من مئة قدم واذا صعدت اليها يمكنك ان ترى دمشق وما حولها من القرى والضياع الى مسافة بعيدة. وامامها الى الغرب المأذنة الغزالية وهي اقصر منها قليلاً. وذهب بعض المؤرخين الى ان هذه المأذنة ومأذنة عيسى كانتا في زمن الرومان واليونان لرصد الافلاك. وفي الشمال مأذنة العروس وهي اجمل من المذكورتين بناها الوليد وانفق عليها المال الطائل ومعين لهذه المآذن خمسة وسبعون مؤذنًا يتناوبون الاذان فيها باجمل الاصوات

وبقعة هذا الجامع مخصصة للعبادة منذ بنيت دمشق فاولاً كانت هيكلاً للاراميين ثم اتخذهُ اليونان معبدًا ثم الرومان ثم المسيحيين كنيسة على اسم يوحنا المعمدان ثم الاسلام جامعًا على اسم النبي يحيا عليهِ السلام

وللجامع سبعة ابواب خارجية فمن الجنوب باب العبرانية ويسمى باب الزيارة وباب الساعات ايضًا ومن الغرب باب البريد ومن الشرق باب جيرون ومن الغرب اربعة ابواب اشهرها باب الفراديس وفي الجامع تحف كثيرة ثمينة وحرمه مفروش بابدع انواع السجادات واكبرها حجمًا واعلاها ثمنًا

وثاني الاموي بالشهرة والجمال جامع السنانية بناهُ سنان باشا

ومن الجوامع المشهورة ايضًا جامع الشيخ محيي الدين بالصالحية يقصدهُ

الناس كثيرًا للزيارة والصلاة وخصوصًا في يوم الجمعة وهو قديم جدده السلطان سليم العثماني عند فتحهِ دمشق وقد زرناهُ وزرنا ما ذكر قبلهُ وغيرهم مرارًا كثيرة فكانت تنشرح صدورنا وتسر خواطرنا ولا سيما عند ما كنا نرى الوف المصلين منكبين على العبادة

ويوجد جوامع كثيرة معتبرة لا يسع المقام الالماع اليها وعدد معابد المسلمين بدمشق فكما ترى

جوامع لاكثرها ماآذن ١٥٢ مساجد ٧١ تكيات ١٤ ترب اوليا ومحلات زيارات ١٩٤ مدارس ٣٩ والمجموع ٤٧١

ومن الترب تربة الملك الظاهر بيبرس وهي جميلة جدًّا واقعة بالقرب من باب البريد وهي بناءٌ عظيم اقيم فيهِ في ايام ولاية مدحت باشا مكتبة عمومية جمع اليها بقايا مكاتب المدينة القديمة فصار بها نيف واربعة آلاف كتاب عربي قديم من ابدع الكتب واندرها وجودًا حتى ان بعضها لا يوجد في غيرها وهي تدل على ما بلغهُ العرب من المدنية والعلم

كنائس دمشق واديرتها

للروم الارثوذكس ثلاث كنائس الاولى كنيسة المريمية وهي قديمة كانت قبل الفتح الاسلامي وتقلبت عليها احوال كثيرة وفي سنة ١٨٦٠ دهمها الدمار فجددت بعد ذلك وكانت من اكبر واجمل كنائس النصارى في الشرق . وكنيسة يوحنا الدمشقي تمَّ بناؤُها سنة ١٨٦٤ وكنيسة في الميدان تمَّ بناؤُها سنة ١٨٦٣

وللروم الكاثوليك ثلاث كنائس . الاولى كنيسة السيدة وهي كبيرة جميلة متينة تجددت بعد خرابها في سنة ١٨٦٠ فاتت احسن مما كانت . وواضع

اسمها اولاً البطريرك مكسيموس مظلوم الشهير . وكنيستان صغيرتان في الميدان بناها البطريرك المذكور ايضاً ايام بطريركيته وللسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي وللارمن الكاثوليك كنيسة صغيرة أُنشئت بعد سنة ١٨٦٠ بقليل . وكنيسة للارمن الارثوذكس واقعة تجاه سور المدينة من جهة الشرق اسمها كنيسة مار سركيس . وكنيسة لليعقوبيين صغيرة اسمها كنيسة حنانيا وللبروتستانت كنيستين الاولى أُنشئت سنة ١٨٦٤ والثانية سنة ١٨٦٨

اما الاديرة فهي دير المعازريين وآخر للفرنسيسكانيين وقد تاسس بحسب ما يقال من نحو ٢٤٠ سنة . ودير للموارنة اسمهُ دير مار انطونيوس وآخر عظيم متسع للرهبان الجزويت ابتدأُوا بهِ من اكثر من عشرة سنين ولم يكمل بعد وفي كل دير كنيسة وجميع هذه الكنائس والاديرة واقعة بحي النصارى وعلى ذلك تكون كنائس النصارى ١٧ كنيسة اما كنائس اليهود فكثيرة واشهرها عشرة والمشهور منها كنيس سوق الجمعة

المعارف في دمشق

اشتهرت هذه المدينة بالمعارف والعلوم في سالف الايام كما اشتهرت بالتمدن والحضارة واستمر ذلك فيها طويلاً واشتهر العدد العديد من رجالها بالعلم والفضل الاَّ ان كثرة التقلبات والاختباطات السياسية جعلت نصيبها كنصيب غيرها من مدن الشرق فتقلص ظل العلم فيها وبقي محصوراً في البعض من رجالها الاَّ انهُ لما ظهرت تباشير الامن نهض اهلها لطلب العلم واحراز المعرفة فانشئت فيها المدارس والمكاتب وما زالت آخذة في التقدم والارتقاء. اما النصارى فكانوا اكثر طلباً واجتهاداً وقد انشئت لهم مدارس

كثيرة وطنية واجنبية حتى صرت لا تجد بينهم من لا يحسن القراءة والكتابة ولغة او اكثر اجنبية الاَّ نادراً فان عددها يبلغ الخمسة عشر وفيها نيف والف وخمسمائة تلميذ وخمسين مدرساً و يدرس فيها مبادئهم الدينية والعلوم العربية والحساب والجغرافية والتاريخ وفي بعضها الجبر والهندسة والمساحة والطبيعيات وغير ذلك ومن اللغات التركية والفرنساوية والانكليزية واليونانية والارمنية والسريانية واشهر هذه المدارس واكثرها علوماً المدرسة الانجيلية وتليها مدرسة الروم الارثوذكس بالعلوم والشهرة ثم المدرسة العازرية ثم الكاثوليكية وما زالت هذه المدارس آخذة خطة التقدم والتحسين

اما مدارس المسلمين فمنها ما هو لدرس العلوم الدينية والفقه و يبلغ طلبتة نحو الالف وجلهم يتلقون العلوم على الائمة المدرسين والعلماء الاعلام في الجامع الاموي وغيره وفيهم كثير من الرجال النوابغ والعلماء الافاضل ممن يطول الشرح بذكرهم

و يوجد كتاتيب كثيرة لتعليم مبادىء القراءة تبلغ السبعين كتاباً وطلبتها نحو الف وخمسمائة طالب ومنذ ايام مدحت باشا أُنشىء مكاتب ابتدائية مرتبة يبلغ عدد تلاميذها الآن نحو الفين و يدرس بها العربية والتركية والحساب والجغرافية ومبادي التاريخ والفرنساوية وللحكومة مدرسة صنائع واربعة مدارس رشدية ومدرسة حربية اعدادية ومدرسة حربية كلية وغير ذلك

اما البنات فمنذ اعصر الاضطراب أُهمل تعليمهنَّ ولكن بعد ايام رحيل ابرهيم باشا عن سورية بقليل نهض النصارى لتعليم بناتهنَّ فاخذوا في انشاء

المدارس لهنّ ثم تبعهم المسلمون ثم اليهود وقد افاضت الشرح بذلك حضرة الفاضلة السيدة سلمى قساطلي الدمشقية في مقالة نشرت في جريدة اللطائف الغراء في السنة الماضية وبينت بتقويم مقدار التقدم من ابتداء نهضة الانثى الدمشقية الى غاية سنة ١٨٩٠ مسيحية فكانت النتيجة كما يأتي

المعدل بالالف	التلميذات سنة ٩٠	عدد الاناث بحسب التعديلات الاخيرة	
١٦٠	١٢٨٠	٨٠٠٠	مسيحيين
٠٤٢	٢٥٠٠	٦٠٠٠٠	مسلمين
٠٦٠	٠١٨٠	٠٣٠٠٠	يهود

اما عدد مدارس البنات المسيحيات في سنة ١٨٩٠ على ما جاء بتقرير الفاضله المذكورة فهو ١٠ نصارى والتلميذات ١٢٨٠ والمسلمين ١٢ مدرسة و١٥ كتاباً والتلميذات ٢٥٠٠ واليهود ٢ والتلميذات ١٨٠ . ويعلم بهذه المدارس اكثر ما يعلم بالمدارس المذكورة و يزاد على ذلك اشغال اليد ولليهود مدرسة حسنة واثني عشر مدرسة بسيطة والتلامذة يبلغون ٤٥٠ تلميذاً وكلهم يتعلمون العبرانية لغتهم الدينية

صنائع دمشق

اشتهرت دمشق بصنائعها المتقنة منذ قديم الزمن من حريرية وقطنية وادوات واسلحة حتى كانت تقدم من مصنوعاتها لكل انحاء الممالك العثمانية الواسعة ولكن منذ نكبة تيمور المغولي بدأ بها الانحطاط وفقدت بعض مصنوعاتها ثم لما كاسدتها البضائع الافرنجية ازدادت انحطاطاً ولكن ما زالت للآن تحسب في مقدمة مدن المشرق الصناعية وخصوصاً في النسج فانه فيها نيف

وخمسة آلاف نول لاجل المنسوجات الحريرية والغزلية والصوفية على انواعها فضلاً عما يعمل فيها من الادوات وغيرها مما لها شهرة كبيرة فيه

تجارة دمشق

نجحت تجارة دمشق في الزمان السالف نجاحًا عظيمًا وصارت مطمعًا لتجارة الحجاز والعراق وبلاد الترك ومصر واستمرت كذلك طويلاً واتسع غناها وتعاظم اقتدارها ولكن لما دخلت التجارة الاجنبية الى سوريا والممالك العثمانية اخذت بالانحطاط الاَّ ان ذلك لم يؤثر فيها الاَّ لحين فتحت ترعة السويس فتحولت اعظم متاجرها عنها وتناولت جانب كبير منها مدينة بيروت وقل وفود الحجاج عليها فزاد ذلك نكبة متاجرها الاَّ انهُ مع ذلك ما زال لها تجارة متسعة مع انحاء الممالك العثمانية وبعض جهات اوربا حيث تصدر حاصلاتها ومصنوعاتها وتستجلب لوازمها ويؤمل سكانها انهُ بمدّ السكك الحديدية المشروع فيها يرد لهم بعض ما فقدوهُ

منتزهات دمشق

منتزهات دمشق كثيرة لا تعد فانك لا تخرج من ابواب المدينة الاَّ وتجد البساتين والرياض مسافة الساعات ولذلك يمكن القول بان دمشق جميعها منتزهات ولكن اشهر ما يقصدهُ الناس هو الصالحية والنيرب والمرجة وجهات باب توما حيث تجد حدائقها عمومية معد للتنزه لا للاستثمار كجنينة الافندي والمناخ والصوفانية وغير ذلك وقاصد هذه المحلات لا ينفق فيها كثيرًا وهي على مدى السنة ما خلا فصل الشتاء غاصة بالمتنزهين

نباتاتها واشجارها

في بساتينها جميع اشجار الفواكه الشهية وهي كثيرة ما خلا انواع الليمون واصناف قليلة غيره واثمارها شهية لذيذة رخيصة الثمن كبيرة الحجم ولكثرتها يكثر اهلها من اكلها وهي تأتيهم صنفًا بعد الآخر. واما الخضرة فيها فكثيرة رخيصة الثمن جدًّا ولاجل ذلك يمكن للكل من جميع الطبقات ان يعيشوا حسنًا ويلتذوا بما يأكلون اذ لا شيء الا وموجود عندهم بكثرة زائدة. وفيها من الاشجار غير المثمرة شيءٌ كثير يرى منهُ احراشًا كثيرة واكثرهُ شجر الحور على انواعهِ الذي ينشرح لهُ الصدر

نثريات

لا يأكل اهل الشام الا اللحم الضاني وما يذبح منهُ في اليوم ٢٨٠ راسًا

في دمشق جرنال واحد رسمي وثلاث مطابع وخمسة مصابن كبيرة ونحو ٣٠ صغيرة و١١ معمل نشا وفيها قلعة قديمة كبيرة جدًّا وقشالق كثيرة للعساكر ويقال ان في مائها خاصة لدفع مرض الجذام ومن اصابهُ واتى بها لا يزداد بهِ وتأكدت بانهُ لا يصاب احد من اهلها بهذا الداء

وبعد ان قضينا وطرنا من مشاهدة هذه المدينة القديمة الجميلة المحسوبة باجماع اهل السياحة قديمًا وحديثًا جنة الارض وزرنا آثارها ومحلاتها المشهورة مما ذكرتهُ وما لم يسعني المقام لذكرهِ عقدنا النية على مبارحتها فودعنا اصحابنا الكثيرين شاكرين ما رأيناهُ منهم من الانسانية واللطف وكرامة الاخلاق مع سلامة النية وخرجنا منها وكلنا السنة ناطقة بشكرهم مرددة آيات حمدهم. حافظين لهم ولمدينتهم الزاهرة احسن ذكر وافضل اثر وقصدنا السفر الى بعلبك

السفر من الشام الى بعلبك

خرجنا من الشام في صباح بهج مارين بمرجتها فما يليها من البساتين والرياض البهجة في الوادي الذي تقدم وصفهُ وكان النسيم لطيفاً والهواء عليلاً والاطيار تترنم على الاشجار وتسبح المبدع الخلاق حتى بلغنا الهامة فعجنا اليها ومررنا فيها واخذنا بالسير في وادي بردى الجميل والرياض حولنا من كل جانب وبردى يطربنا بنغمات سيره ومنظر انسياب مياهه فوصلنا قرية نسيمة فالعين الخضراء التي بجانبها وهي عين ماؤها زلالي ينساب على حصباء كالدر ونبات كالزمرد في بقعة اهدتها الطبيعة ما عندها من الجمال تحيط بها الجبال ونهري بردى والفيجة يلتقيان بالقرب منها التقاء الاحباب وبعد ان لبثنا بها قليلاً بحسب ما سمح لنا المقام ركبنا مطايانا واستأنفنا السير ما بين رياض وغياض فبلغنا الفيجة حيث ينبع النهر المنسوب اليها من سفح جبل شاهق وفوق النبع آثار هيكل بناهُ الاقدمون ويعلوهُ آثار قصر قديم يقال ان السلطان صلاح الدين الايوبي بناهُ. ثم سرنا بذلك الوادي البهج وحولنا مثل ماوصفناهُ مارين بقرى كثيرة فيه تكتنفها الاشجار المثمرة وغياض الحور البهجة وتنبع من جوانبها اعين الماء جداولاً وتنحدر في ذلك الوادي الى بردى بعد ان تسقي الحدائق والجنان بانغام اشهى في السمع من انغام العود والقيثار حتى انتهى بنا السير بعد مسير نحواً من سبع ساعات الى قرية سوق وادي بردى وهي اكبر قرى هذا الوادي قائمة على آثار مدينة الابلية القديمة ووراء هذه القرية في الجبل آثار كثيرة من بناء ومدافن مما يجذب نظر السائح لمشاهدتها وهناك تجد في الصخور اقنية قديمة محفورة حفراً متقناً من ايام

الاقدمين يسير فيها الماء لسقاية الاراضي المرتفعة فاسترحنا قليلاً نسرح الطرف بتلك المناظر التي قلما يوجد مثلها على الارض وعاودنا السير. اما هذا الوادي فعلى هذه البهجة والجمال منذ القديم وكان يلقب بوادي الذهب ووادي البنفسج وقد وصفهُ كثيرون من الشعراء والكتاب وكل قراه قائمة على آثار قديمة من زمن الرومان. وعند سيرنا انحدرنا انحدارًا في ذلك الوادي حيث قل انفراجهُ كثيرًا حتى وصلنا الى بردى فمررنا على قنطرة قديمة فوقهُ تجددت كثيرًا وكانت آثار الابلية القديمة في الجبل عن يميننا ممتدة لمسافة بعيدة ثم اخذنا بالصعود وبردى عن يسارنا وبالقرب منا ينحدر بقدر ارتفاعنا. وعن يسارنا الى ما وراء النهر غياض حور كثيرة واستمرينا سائرين حتى انفرج امامنا سهل الزبداني الخصب فسرنا به نحوًا من ساعتين ومناظر الجبال تشرح صدورنا وبردى ينساب بهدوٍّ على بعد منا حتى بلغنا الزبداني ونزلنا بها ولبثنا تلك الليلة. وهي بلدة تحتوي على نحو من اربعة آلاف نفس وترى البساتين حولها على مسافة ساعة وهي كجنة تجري من تحتها الانهار وفيها كثير من اشجار توت الحرير والتفاح على انواعهِ وغير ذلك كثير واما في الجبل فقرى كثيرة عامرة كل قرية منها كجنة وهذه القرى مشهورة كثيرًا بطيب الهواء والماء يقصدها اهالي دمشق لصرف ايام الصيف فيها واشهرها مضايا وبقين وبلون وبالسهل بالقرب من الزبداني ينبع نهر بردى وبعد ان لبثنا في الزبداني يومين سافرنا منها الى بعلبك. وبعلبك مدينة قديمة جدًا ذكرها كثيرون من المؤرخين في ادوار مختلفة وهي تشبه الشام في البناء وكثرة البساتين والثمار وفيها كثير من المتنزهات اشهرها منتزه راس العين وتحتوي على لوكاندات مشهورة معتبرة

وقد نزلنا في احد نزلها المشهورة فصادفنا به كل راحة . وهذه المدينة مشهورة بآثارها وقلعتها المشهورة في العظمة ودقة النقش واتقانهِ وبعض حجارتها هائل جدًّا جدًّا وقد زرناها مرارًا وفي كل مرَّة نرى ما لم نرهُ قبلاً وقد وصفها كثيرون من كتابنا الشرقيين الافاضل وفصلوا ما بها من عجائب البناء وصنعتهِ واتوا على تاريخها ورسم صورها واخص من ذكر ذلك جريدة المقتطف الاغر فليراجعهُ من شاء تفصيلاً . ويوجد فيها آثار كثيرة غير قلعتها ما يستغرق وصفهُ وتفصيلهُ مجلدًا وكلهُ يدل على ما بلغتهُ سورية في سالف الزمن من العظمة والاقتدار وبعد ان صرفنا اياما قليلة في بعلبك باضافة حضرة قائمقامها وقاضيها واعيانها توجهنا الى ارز لبنان عن طريق الدير الاحمر

ارز لبنان

اما ارز لبنان فغاب بالقرب من بشرَّة يشتمل على ٤٧٣ شجرة وارتفاعهُ عن سطح البحر اكثر من ستة آلاف قدم يتقاطر اليهِ السيَّاح من سائر انحاء المسكونة ومنظرهُ من ارهب المناظر وشجرهُ من اكبر واعلى الاشجار ورائحتهُ زكية ونموهُ غريب واهالي تلك النواحي يزورونهُ ويسمونهُ ارز الرب وفي ذلك المكان كنيسة لطائفة الموارنة فيها دفتر لكتابة اسماء كل الذين يزورون الارز . وقد نظرنا شجرة مجوَّفة قيل انهُ اقام فيها ناسكٌ زمنًا طويلاً . ومحيط بعض هذه الاشجار اكثر من اربعين قدمًا وهي عالية جدًّا عن الارض . وبالقرب من الارز فم الميزاب وهو من اعلى جبال سورية يطلُّ على البحر المتوسط ومدينة بيروت امامهُ كأنها في البحر وهذا المنظر من اجمل ما رأت عيني وتشاهد من هناك السفن البحرية تمخر في عباب البحر الى جهات مختلفة بما يسرُّ الخاطر

ولبثنا في تلك الامكنة مدة نمتّع النظر بتلك المشاهد الجميلة شاكرين الخلّاق الحكيم وفارقناها ونحن نودّ عدم مفارقتها وكان معنا حضرة الفاضل راجي بك مدير تلك الناحية فودَّعناهُ شاكرين لطفهُ وكمالهُ واتينا على خيولنا الى مدينة زحلة

وهي بلدة جيدة الهواء والماء قائمة على جانبي وادٍ بهج ونهر البردوني يمر في وسطها وموقعها في سهل البقاع على قرب من جبل لبنان واهلها جميعهم مسيحيين موصوفين بالشجاعة والاقدام ويبلغ عددهم ١٤ الف نفس وفيها سوق كبير وهي مركز تجارة لبلاد البقاع وجانب كبير من لبنان وفيها كثير من الكنائس والمدارس للذكور والاناث ويقصدها كثيرون من بيروت والشام حتى ومن بر مصر لصرف ايام الصيف وماؤُها عذب بارد جداً ولها كثير من الكروم وجانب كبير من تجارتها بالعرقي والحبوب وتبعد عن اشتورة ساعة على الراكب واهلها يحبون البسط والانشراح ويكرمون ضيوفهم كثيراً . وقد لبثنا فيها مدة ودعينا الى مناولة الطعام عند حضرة قائمقام البقاع في معلقة زحلة ولقينا من حضرتهِ كل انس واكرام وتعرفنا هناك بجمهور من افاضل القوم ثم خرجنا من هناك شاكرين حامدين . وبعد ذلك عدنا الى بيروت ومنها الى الاسكندرية فدمنهور. ولا نزال نتذكَّر لطف القوم وانسهم مع المحبة والاكرام

انتهى

فقيد عزيز

نقلاً عن جريدة اللطائف الصادرة في ١٥ ابريل سنة ١٨٩٣

ما انتهينا من طبع سفر السلام في بلاد الشام على ما ترى في هذا الجزء من اللطائف (وهو الاثر الادبي المخلّد لمؤلفهِ مع الرحمة) حتى صعق آذاننا نبأ اجرى الدموع واحرق القلوب ألا وهو وفاة الصديق الحميم العزيز المرحوم عبد الرحمن بك سامي مدير المنيا — استأثرت بهِ رحمة الله في منتصف ليل ١٢ ابريل سنة ١٨٩٢ وهو في شرخ الشباب تاركاً اولاداً صغاراً دون سن الحلم . وكان قد اصابهُ اعتلال فتوجه الى اسيوط التماساً للشفاء بتبديل الهواء في منزل سعادة شقيقهِ الفاضل سعد الدين باشا وقضى هنالك زمناً يقاسي عناء الداء بما اتصف بهِ رحمهُ الله من الصبر وثبات العزيمة . ثم عاد الى منزلهِ بالمنيا قبل الوفاة بيومين حيث وافتهُ منيتهُ فوجفت لذلك قلوب الاصدقاء والمحبين واقبل الخلق الكثير على منزلهِ وهم يذرفون الدمع السخين على فقدهِ ثم شيعوا الجثة الى المحطة بموكب حافل وكلهم آسفٌ كاسف البال على فقيد كريم قضى معظم ايامهِ في خدمة الحكومة السنية كان في خلالها عنوان النزاهة والاستقامة . وقد حمل نعشهُ الى العاصمة وما ذاع هذا الخبر المشوم حتى هرع جماهير الخلق الى منزل سعادة شقيقهِ يعلوهم الاسى والاسف على هذه الفاجعة

وعند الساعة الثالثة بعد ظهر الثلثا (١٢ ابريل) شيعت الجنازة الى المدفن باحتفال عظيم يليق بقدر المتوفى وآلهِ ومشى فيها جمهور العظماء والكبراء والوجهاء وجميعهم واجفون من هول هذا المصاب ذاكرون جليل مناقب الفقيد وجميل

مزاياهُ وواروهُ التراب مرحمين عليهِ . وفي المساء غصّ منزل سعادة شقيقهِ سعد الدين باشا بالوزراء والعلماء والكبراء والرؤساء يعزونهُ على هذا المصاب ولا يزال الناس يتردّدون الى منزل سعادتهِ والرسائل البرقيّة تتوارد من الجهات معربة بمشاركة العموم في الاسف على هذا الفقيد العزيز. واننا في هذا المقام نتقدم الى سعادة شقيقهِ الفاضل مدير اسيوط وسائر آلهِ الكرام ومعشر الاخوان الاحرار بعبارات التعزية سائلين الله ان يثبهم ويهب اصدقاء الفقيد نعمة الصبر الجميل على هذا الخطب العظيم

اثر ادبي حميد

جمعنا في كتابٍ واحد رحلة المغفور لهُ صديقنا العزيز عبد الرحمن بك سامي بعد ما نشرناها في اللطائف تباعاً بعنوان سفر السلام في بلاد الشام وبعد انتهاء طبع الكتاب المذكور بقليل بلغنا النبأ المشوم بوفاتهِ رحمة الله عليهِ . فاقتضى نشر هذه الجملة لاعلان الذين يرومون حفظ اثر الفقيد العزيز ان يطلبوا كتابهُ من ادارة اللطائف